Tkween 2020

على شرفة الأيام

ثريا الدعيس

الطبعة الأولى
1441هـ - 2020م

تكوين
Combination

جميع الحقوق محفوظة

شركة تكوين للنشر والتوزيع
جدة طريق الملك فهد
هاتف/ ٠٥٠٩٠٠٢٢٨٣
الطبعة الأولى
tkweenonline.com.sa

رواية

على شرفة الأيام

ثريا الدعيس

الإهداء

إلى كل قلب ينبض بالأمل..

البداية

شاءت الأقدار أن أعيشك حلمًا يا سلطان يتبدد عند كل لقاء

وأن أعيش حلم لقاك رباطًا على ثغور الانتظار.

وضع يده على رأسها وقال: هذه قوانين الحياة يا غالية.

في حياة كل شخص منا فرحة لم تكتمل

وحلم لم يتحقق

وتحت جنح كل نجاح تضحيات جسيمة لقصص ووقائع غمرتها الأيام والسنون.

كانت غالية تستعيد هذه اللحظات العالقة في ذاكرتها عند كل مساء، حين تنطفئ الأنوار وتغفو العيون تخرج إلى شرفتها وتجلس على كرسيها الهزاز قد أمنت تلصص العيون، ترقب تفاصيل المسجد المتوسط ساحة الحي الواقع في الحرة الشرقية للمدينة المنورة وتتأمل بريق النجوم.

فقدت غالية أسرتها منذ سن مبكرة وعاشت في كنف أخيها عادل الذي ظل يرعاها ويحيطها بالحب والحنان، وكان من دواعي الحظ الأوفر لها أن يعزف عادل عن الزواج حتى يراها قد انتقلت إلى بيت زوجها ويطمئن على باقي حياتها كما جرت العادات والتقاليد التي انتهجتها قبيلته في حالة توفي الوالدين ولم يكن للفتاة من راعٍ غير أخيها، ورغم محاولاتها المستمرة لإبطال هذا العرف وإقناع عادل بالزواج إلا أنه كان يقابلها بالصد في كل مرة.

العمارة القديمة الواسعة ممتلئة بالسكان الأصليين،

الشيخ صالح في الطابق الأول تقابله الخالة أم خالد،

الخالة أم راشد في الطابق الثاني تقابلها الخالة أم سلطان،

أما الطابق الثالث فكان من نصيب عادل وغالية، تقابلهم شقة

مظلمة قد هجرها ساكنها وانتقل إلى مدينة الرياض، يعود إليها كل رمضان ليشارك أهل العمارة الصيام وفرحة العيد في كل عام.

أينعت غالية، فتجسدت ملامح الشباب على صورتها وبدأت العيون تلاحقها والقلوب تخفق لها، لكنها كانت تتمتع بحياء مفرط جعلها تلزم البيت وتبتعد عن إطراء الخالات المتعمد لأبنائهن في حضرتها.

وعند الصباح حين تذهب إلى الجامعة تنزل من سلم العمارة بهدوء محاولة التخلص من استقبال الحارس خالد لها مع كل صباح، رغم الحفاوة والامتيازات التي قد أحاطها بها.

كان خالد قد نصَّب نفسه حارسًا للعمارة، يسهر ليلًا عند الباب وهو ينفث الدخان بشراهة لحراسة العمارة من اللصوص الذين ابتكرهم في مخيلته.

حتى إذا حل الصباح نام على ذات الكرسي وأذنه يقظة مع كل قدم تصعد أو تنزل من السلالم، يصيح متلعثمًا: توقف أيها الجار العزيز، لن تدخل أو تخرج إلا بريال تضعه في الصندوق. وبالمقابل يعطيهم قصاصة ورق فارغة تمنحهم صلاحية الدخول أو الخروج،

وهكذا أوجد خالد لنفسه مصدرًا للتكسب والتسبب على حساب الساكنين. الجميع هنا يدفع، باستثناء غالية والفتيات الشابات اللاتي تم منحهن البطاقة الصفراء سارية السماح، أما الخالات والرجال فمصيرهم التوقيف حتى يتم الدفع.

ورغم هذا السلوك غير المشروع، إلا أن الخالة أم خالد كانت سعيدة جدًّا لهذه الهمة والمهنية التي حلت بخالد، وها قد أتت مجترئة لطلب يد غالية من عادل وهي تصف لهم عبقريته في جمع المال، تضحك غالية ضحكًا شديدًا وهي تتمايل محاولة إسكاتها عن إتمام الطلب، ويضحك عادل لضحك غالية وسط استغراب واستنكار الخالة أم خالد لهما.

كان عادل الأخ الحنون، يدرك أن الوقت قد بدأ يقترب لفراق غالية، ومع ذلك فإنه كان يشعر بالفخر الكبير إزاء نجاحه في تربيتها ورعايتها وهو يرى أدبها في سلوكها وفرط حيائها ونجاحها في كل عمل تقوم به. ومرت الأيام وجاء اليوم الذي سيحل فيه عادل محل الوالدة والأخت ليحادثها بحديث مختلف عن حديثهما طوال السنين الماضية، فجلس إلى جانبها وقد علاه الارتباك وقال: يا غالية،

لقد استخلفني والديَّ -يرحمهما الله- عليكِ وأنتِ طفلة صغيرة، وأنا شاب في مقتبل العمر لم يسبق له حتى أن تحمل مسؤولية نفسه، فوجدت نفسي قد أصبحت لك أبًا وأمًّا وأخًا وأختًا في يوم واحد، كنت أخاف أن يصيبك الجوع أثناء مذاكرتي، أو تبردين أو تصيبك الحمى ليلًا أثناء نومي.

كنت أخاف أن تخفي عني قسوة معلمتك أو تنمر صديقاتك، وما زلت أقترب منك يومًا بعد يوم حتى أصبحتِ لي حياة ألونها وأجتهد في رسم السعادة على ملامحها، وأصبحت تكبرين وأنا أترقب على وجل أيَّ الأيادي تستحقك يا غالية ومن هو جدير بمثلك يا عزيزتي، كنت أرفض كل من يتقدم إليك سرًّا دون الرجوع إليك، حتى تقدم لك اليوم جارنا سلطان، فلم أجد عذرًا أرده به أو عيبًا يمنعه أن يكون لك زوجًا، فماذا ترين؟

تورد خداها وابتسمت بخجل، فعلم عادل أنها الموافقة.

وعلى فواح المباخر وأصوات الزغاريد المتعالية في المنزل كانت الخالات أم سلطان وأم راشد وأم خالد يهيئن غالية للدخول على سلطان، لينظر إليها نظرة الخاطب الشرعية، ترفع الخالة أم خالد

صوتها بالزغاريد ثم تعود فتبكي، في حين تقوم الخالة أم سلطان بتهدئتها والدعاء لخالد بالعوض الجميل. وعلى أصوات الزغاريد دخلت غالية على سلطان وقلبها يرتجف وأطرافها لا تستطيع حملها.

لمْ يكن هذا الشعور مستغرب بل كان طبيعيًّا لمن أمضت من عمرها ثلاثة وعشرين عامًا لا يرى منها إلا عباءتها السوداء المسدولة من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، ثم تأتي لحظة لتكشف فيها ما أخفته من محاسن وجمال طوال فترة الجوار. ولم يكن هذا الشعور الذي بغالية بأقل مما شعر به سلطان من مشاعر قد اجتمعت عليه، فسلطان لم يسبق له أن أرسل نظرة إلى امرأة من غير محارمه، لا في الأسواق ولا في التلفاز، ولا حتى في الجوال، لقد كان يشعر بحرج كبير، ولم يكن يعرف كيف يبدأ باستراق النظرات، وتمت النظرة وبارك الجميع إتمام الخِطبة وسط فرحة كبيرة أتت على جميع الساكنين، باستثناء خالد الذي أعلن فرض رسوم إضافية على سلطان لترتفع إلى ريالين عند كل دخول وخروج، ريال عن سلطان وريال عن غالية، ولكن سلطان

كان أكرم مما يتوقع خالد، فقد أخذ يدفع خمسة ريالات عند كل دخول وخروج ، لعله كان يدرك حجم الألم الذي لحق بخالد! ومرت الأيام وبدأ سلطان بتجهيز بيته الجديد الذي يبعد عن العمارة بضعة أمتار، كما يفعل أغلب الشباب الذين يرتبطون مع أحيائهم برباط الحب العميق ويرفضون مغادرتها، وبدأت غالية تنظر إلى بيتها نظرات الوداع، لتسترجع ذكرياتها الجميلة فيه وتفكر مليًّا في العمر الذي أمضاه عادل في رعايتها وحيدًا طوال تلك السنين، فمن هم في سن عادل قد أصبحوا اليوم آباء لأبناء في نهاية المرحلة الابتدائية.

كانت تتألم كثيرًا إذا فكرت في لحظات بقائه وحيدًا في المنزل ليرتب أمور زواجه في هذا العمر المتأخر. فخرجت إليه تستغل لحظات بقائها معه للاطمئنان عليه وقد بدا على وجهها الحزن، فلما رأى الحزن باديًا على وجهها قال لها ممازحًا: ما ليَ أرى العروس حزينة؟ مسحت الدموع وجلست إلى جانبه وقالت: سامح الله من مضوا إلى الحياة الآخرة وخلفونا أسارى بين قيود العادات لنعيش مكبلين بها طوال حياتنا.

فزع عادل من مقالتها وقال: لا يا غالية، ما هذا الذي أسمع!

فـردت بسـخط: مـا كان أحوجـك لـزوج تسـعدك وأطفـال يلعبـون بجانبـك عنـد مغـادرتي هـذا المنـزل! ثـم تنهـدت بحـزن وأردفـت قائلـة: باللـه عليـك يـا عـادل، أيُّ ظلـم هـذا الـذي قـد لحـق بـك! مـا أبـأس هـذه الأعـراف التـي قبلتهـا وآمنـت بهـا!

أمسـك بيديهـا وقـال: هـذا مـا تربينـا ونشـأنا عليـه يـا غاليـة، ونحـن نتقبلـه بصـدر رحـب، أترضـين أن تقـول القبيلـة إني قـد جعلتـك خادمـة لزوجتـي ولأبنائي؟!

قاطعتـه بغضـب: القبيلـة القبيلـة.. مـا أبـأس رأي النـاس الـذي يخالـف العقـل والمنطـق!

قام غاضبًا وهو يقول: متى ستكفين عن هذا الهراء؟!

كيـف لا نخـشى القبيلـة وهـي المجتمـع والمحيـط الـذي نتعايـش معـه والنبـع الـذي نسـتقي منـه سـلوكياتنا؟ وإذا لم يعجبـك رأي المجتمـع فأنـتِ بـلا شـك حالـة شـاذة قـد خرجـت عليـه. وتـولى خارجًـا مـن الغرفـة.

خاطبـت غاليـة نفسـها وهـي تشـد مـن عزيمتهـا: يجـب أن أسـتمر في

دراسة علم الاجتماع حتى يسهل عليَّ فهم أسباب هذه المعتقدات وإيجاد الطرق السليمة لحلها.

وتمر الأيام ويقترب موعد عقد قران غالية وسلطان.

كان عادل، وهو الأخ الحنون، لا يتوانى عن إدخال السعادة على قلب غالية بشتى الوسائل، وها هو قد أخذ بيدها إلى السوق ليشتري بعض الأثاث لمنزلها الجديد، وبين الثلاجات والغسالات وأدوات المطبخ كان يتجول معها والفرحة تعلو وجهه، أما غالية فقد شعرت بأن ثمة عبء وخسارة مادية جديدة قد ألحقتها بعادل، إضافة إلى ما قد تحمله عنها طوال الأعوام الماضية، فهمست في أذنه وكأنها تصرفه عن فعل ذلك وقالت: أخبرني يا عادل، هل شراؤك لهذا الأثاث فرض قد فرضته العادات عليك أم مساعدة شخصية منك لسلطان؟

تنهد بملل وقال: لا تكفين عن هذه الأسئلة منذ طفولتك يا غالية، هي يا عزيزتي مساعدة وفرض قد فرضته العادات والتقاليد.

ردت: ولكن شرع الله لم يأمرك بهذا الفعل، وكنتَ أحوج لهذا الأثاث لتجهيز زواجك، فلماذا استجبت لهذه الأعباء؟

رد عليها ساخرًا: حسنًا، لن أفعل ولكن سيؤول أمر زواجك إلى الفشل. أوجست غالية في نفسها قلقًا

ثم قالت بعناد: فليفشل، لا أريدك أن تقوم بشيء لا تؤمن به.

تبسم ضاحكًا وقد تبين القلق في صوتها وقال: حسنًا يا غالية، إنني لا أريد لهذا الزواج أن يفشل حتى لا تظلي أمامي تجادليني في قضايا المجتمع وأظل أعزب بقية العمر، والآن كفي عن هذه المهاترات العنيدة ودعينا نكمل ما تبقى من أيامنا بسلام. ضحكت قائلة: هو السلام إذن.

لم يكن باستطاعة عادل أن يعيد النظر في أي عادة قد اكتسبها من القبيلة؛ ذلك لأنه كان يرى أن ميراث القبيلة منزه عن الخطأ وأنه أنفذ على الرجل من حد السيف، ورغم هذا التشدد الذي أحاط بشخصيته، إلا أنه كان دمث الخلق نقي المعدن ومحبوبًا لدى الجميع.

وتم عقد القران، وها قد أتت اللحظات التي ستدخل فيها غالية على زوجها الذي كان في انتظارها. اقتربت من الغرفة تخط الأرض بأدب وحياء وعادل ممسك بيدها، حتى أجلسها أمام

سلطان، فأخذ سلطان يحدق فيها ويتأمل سبحات الجمال على وجهها، وهو يفكر بأمر هذه الفتاة والتي يراها الآن، لقد كانت قبل يوم واحد تبالغ في ستر وجهها وحجب ملامحها عنه، كان ذلك المشهد يذكره بمشهد انكشاف البدر بعد انقشاع الغيوم.

وتملكت من سلطان مشاعر جديدة لم يسبق له أن شعر بها، تشبه تلك المشاعر التي تسبق لحظات الفوز وإعلان الفائز الوحيد. أمسك بيديها وقال: هل تدرين بمَ أشعر الآن يا غالية؟

رفع رأسه عاليًا ثم قال: أشعر أنني رجل عظيم، عظيم جدًّا، قد خصني الله بشيء لي وحدي لا يشاركني فيه أحد، لا يراه مخلوق سواي، وهذا ما أراده الله لي من الكرامة والتمييز حين احتجبتِ بغطائك عن العيون.

كان سلطان مستشعرًا معنى الزواج القائم على العفاف والفضيلة والذي لم تسبقه أي ملوثات باسم الحب أو التعارف القصير.

ثم تبسم وهو يقول:

شكرًا لك يا غالية لأنكِ منحتِني ثقتك بأن أكون لك شريكًا يشاطرك الحياة، أعدك أن أكون لك كما أمر الله.

تبسمت غالية وقد أحنت برأسها وهي تخفي عنه بعض الكلام.

لم يكن سلطان شابًّا كباقي الشباب، لقد كان شابًّا ممتلئًا بالطاقة والإيجابية، محافظًا على الصلاة في الجماعات، مبادرًا للطاعات، يتزعم المبادرات الخيرية ويسعى دائمًا لخدمة المجتمع، إضافة لذلك، فقد كان طبيبًا ناجحًا ويسعى لأن يكون عالمًا ذا بصمة في هذا المجال؛ لذا فقد شعرت غالية بأن سلطان هو الشخص الذي ستستطيع بجانبه بناء الأسرة الواعية التي تعين المجتمع ولا تكون عبأً عليه.

ومرت أيام جميلة في حياة سلطان وغالية وهما ينتظران موعد الزفاف ويخططان لحياتهما الناجحة. كانت غالية تسامر القمر، مع كل ليل تجلسه في شرفتها، تخيط في فكرها حلم الحياة الجديدة، وتخاطب نفسها بصمت (إذا كان سلطان يريد أن يصبح طبيبًا للأجساد فإنني سأصبح طبيبة للعقول)، ثم تبتسم وهي تتبع تفاصيل الحي بنظرها، كانت أحلامها تناطح السحاب، فقد أصبحت عضوة في أفضل صحيفة في البلاد وقد اقتربت منها الفرصة لتحقيق مبتغاها ووضع بصمتها في هذه الحياة.

لم تكن غالية فتاة تعيش وقتها كبقية الفتيات، لقد كان عقلها

أكبر بكثير من عمرها، لم تفكر يومًا في ذاتها، بل حملت هم مجتمعها منذ وقت مبكر، وها هي تعد نفسها لإكمال دراستها العليا في علم الاجتماع كي يكون بوسعها وضع طرق وخطط للحفاظ على هوية المجتمع في ظل تلك الدعوات الجديدة التي تسعى لتمزيقه في ظل ذلك الانفتاح في التواصل.

أرادت غالية من خلال تخصصها الدراسي أن تكرس حياتها لنشر قيم الفضيلة، ومحاربة السلوكيات المنحرفة التي استلهمها الشباب من الغرب عبر متابعة وتقليد بعض مشاهير منصات التواصل الاجتماعي ونجوم الإعلام، ومحاربة المحتوى الهابط الذي يقدمونه للسقوط بفكر الشباب وتمييع سلوكهم لينسلخوا بعيدًا عن هويتهم الوطنية الأصيلة، ولم تكن تعلم غالية ما الذي تخبئه لها الأقدار في طيات هذا الحلم الجميل.

وبينما كانت ترسم هذا الحلم لنفسها، كانت أحلام سلطان قد قاربت الواقع، فقد زُفت الأنباء إليه بقبول أبحاثه لدى مراكز البحث في السويد وقد أصبح بإمكانه هو الآخر وضع بصمته وتحقيق قفزات كبيرة في مجال الطب.

حادثها مباشرة على الهاتف وهو يزف إليها أنباء القبول ويخبرها بأنه يتوجب عليهما السفر في غضون ثلاثة أسابيع.

ولكن تلك البشرى لم تسعدها و ظلت ساعة شاردة الذهن يعلوها الوجوم!

لقد كانت على ثقة بأن هذا السفر أبعد من المحال، لم يكن عادل ليسمح لها بالسفر إلى بلد غير مسلم وكانت على يقين من ذلك من خلال معرفتها التامة به. ثم أخذت تفكر في أحلامها وأهدافها التي تسعى لتحقيقها في الحياة. لم يكن سلطان يفكر في النجاح الشخصي الذي سيحققه، بل كان يفكر بشكل أكبر وأنبل، كان يريد أن يسخر مواهبه وابتكاراته لخدمة البشر، لرفع البلاء عن أولئك الموجوعين بالألم؛ لذا فقد ظل يقنع غالية بترتيب الأولويات وبأنها تستطيع المضي قدمًا في إنجازاتها عبر الإنترنت حتى يعودا إلى الوطن، وإذا بها ترضخ لتوسلاته راجية أن تنجح أبحاثه لرفع المعاناة عن أولئك النائمين على الأسرة البيضاء يغتالهم الألم حينًا بعد حين.

وأخذت غالية تفكر مليًّا في كيفية مفاتحة عادل بالأمر، وطال

تفكيرها وظلت في شرفتها حتى ساعة متأخرة من الليل.

ولما لم يكن ذلك الغياب عن عادل من عادتها، قام إليها يتفقد حالها، فلما دخل عليها رآها عابسة كئيبة فسلم عليها، ولكنه بالكاد رأى رد السلام على شفتيها.

انتابه القلق، فاقترب منها أكثر يسألها عن سبب ذلك الوجوم.

صمتت قليلًا ثم قالت وهي تحبس الدموع: أوشك الفرح أن يبتعد عن غالية.

أخذ بيدها وقال مستفهمًا: أخبريني، ما الأمر؟

لم تشأ غالية أن تصطدم في يوم من الأيام مع عادل، ولكنها الأقدار، وضعتها في هذا المأزق الضيق.

ولما كانت غالية على قدر عالٍ من اللباقة والذكاء، حاولت أن تستجمع كل ملكاتها محاولة التأثير عليه ليمرر الزواج ويأذن لها بمرافقة سلطان، ودار بينهما حوار طويل مؤلم كان أشد عليهما من وقع السيوف.

قالت وقد أمسكت بيديه وكأنها تريد احتواء غضبه: ألا ترى يا عادل أن عالمنا اليوم أصبح متشابكًا وقريبًا وأصبحت ثقافة الغرب

تصل إلى بيوتنا إن أردنا اكتسابها دون أي عناء؟

صمتت قليلًا ثم قالت:

لم يعد الغرب ذلك العالم البعيد عنا، ألا تشاركني الرأي؟

لم يفهم المراد فقال لها: اختصري الكلام يا غالية.

تظاهرت بالاستبشار وقالت: يا عادل، إن سلطان قد أتته دعوة من السويد لتطبيق أبحاثه العلمية فيها، وقد خُصص له فريق متكامل من العلماء والأطباء والباحثين، ولا بد له من السفر خلال أسابيع، فإن حقق نجاحًا في أبحاثه فقد تحدث نقلة تقلب موازين الطب لتزيح الكثير من الألم والعناء عن البشر، ثم قالت بصوت ضعيف: وهو يريد اصطحابي معه لأنه قد يمكث فيها لسنوات عديدة.

اهتز جسد عادل وهو يردد: أعوذ بالله! ما هذا الذي أسمع؟!

تريدين السفر إلى دار الضلالة والكفر لتستقي من قيحها وخبالها وتعودي إلى وطنك بأبناء قد تشربوا أفكارها ومعتقداتها واستشربوها.

ردت بعجل: لا تخشَ من ذلك يا عادل، أعدك بأن أحسن البناء وأثبت الدعامات بقوة. ثم أردفت لتزيد في إقناعه: ألا ترى يا

عـادل أن بعـض أبنـاء المسـلمين في أوطانهـم قـد اعتنقـوا حضـارة الغـرب وبـدا ذلـك واضحًـا عليهـم مـن لبسـهم وسـلوكهم، بـل حتـى في مأكلهـم ومشربهـم وكلامهـم؟ ثـم إننـا نجـد في المقابـل مـن أبنائنـا في الغـرب مـن لا يـزال متمسـكًا بهويتـه معتـزًا بهـا؛ إذن فالمعادلـة ليسـت بالبقـاء أو السـفر، بـل هـي في التربيـة والتنشـئة.

ظلـت تقنعـه وتجادلـه وقتًـا طويـلًا، ولكـن عـادل لم يكـن ليقبـل أبـدًا أن يرمـي غاليـة في أحضـان مجتمـع يعـج بالرذائـل، فلقـد كانـت غاليـة خلاصـة عمـره وأمانـة حملهـا في بواكـير شـبابه، وثمـرة جهـده وأحلامـه في تربيتهـا لتكـون فتـاة ذات بصمـة مؤثـرة في مجتمعهـا ووطنهـا.

أجابهـا وهـو يشـتاط غضبًـا: إنـك تتكلمـين وكأن هـذا العـالم يسـير وفـق إرادتـك!

عن أي تنشئة تتحدثين في مجتمع يعج بالمنكرات والمحرمات؟!

أخبرينـي، كيـف سـتتحكمين في المدرسـة والأصدقـاء، في الشـارع وفي شـتى مرافـق الحيـاة؟!

أنت تريدين مواجهة الطوفان يا غالية.

قبضـت عـلى يديـه وقالـت: لمـاذا تنظـر إلى الجانـب المظلـم فقـط

يـا عـادل! سـأذهب بهـم إلى مقـرات العلـوم والابتـكارات، سـأريهم ثـورة التقنيـات، الروبوتـات، المكـوك والصواريـخ والطائـرات، سـيرون نجاحـات العلـماء وإنجازاتهـم. قاطعهـا قائـلًا: عندهـا سـيأتون إلينـا مصدومـين وقد أعجبـوا بحضـارة الغـرب، ليحاربـوا ديننـا ويتهمـوه بالتخلـف والجمـود كـما فعـل مـن فعـل، وعندهـا لـن تسـتطيعي التبريـر وقـد رأوا فـرق الحضـارات بأعينهـم.

تنهـد بـألم وقـال: أنـتِ يـا غاليـة لا تدركـين اليـوم خطـورة مـا سـيحل بـك غـدًا، تودين مغالبتـي ولا أرى إلا واقعًـا آخـر سـيجتاحك كـما تجتـاح الأمـواج سـاحلها، عندهـا سـتذكرين كلامـي ولـن ينفعـك النـدم.

وخـرج مـن الغرفـة بائسًـا مقهـورًا وهـو يـرى أن سـلطان قـد هـدم مـا بنـاه في تربيـة غاليـة طـوال حياتـه في غمضـة عـين.

عنـد أذان الفجـر مـن اليـوم التـالي، كان سـلطان يبـكي بـين يـدي إمـام المسـجد جارهـم الشـيخ الفاضـل صالـح يسـتجديه للتدخـل بإقنـاع عـادل بإمـرار قـرار السـفر، ولمـا حـضر عـادل إلى الصـلاة، صـلى الفجـر جنبًـا إلى جنـب مـع سـلطان، فلـما هـم بالخـروج مـن المسـجد اسـتمهله الشـيخ صالـح بالانفـراد بـه للحظـات وسـلطان إلى جانبـه يقـف متوتـرًا حزينًـا.

فهم عادل ما يريد أن يقوله الشيخ صالح، فبدأ الحديث ونار الغيرة والغبن تضطرم في صدره وقال: يا شيخنا الفاضل، إنني أعلم أن سلطان قد جعلك وسيطًا لإقناعي للسماح لغالية بالسفر إلى السويد، وإنني معك في هذا المسجد الذي قد وضعه الله لعبادته، أنشدك الله أن تجيب إجابة الحق، هل من الصواب أن أسمح لأختي التي عكفت على تربيتها عمري وشبابي حتى غدت فتاة صالحة ذات أثر طيب في قلمها وعملها ثم أرميها بين أمواج الكفر والضلال ليحقق سلطان أحلامه؛ فتعود لنا بأبناء قد اعوجت ألسنتهم وقلوبهم ليتبجحوا على قيمنا وعاداتنا ويستلوا السيوف الغربية لذبح تراثنا ومعتقداتنا؟

رد الشيخ صالح بوقار وقال: اجلس فاسمع مني.

جلس الشيخ وعادل إلى جانبه فقال له: يا عادل، إن طاعة غالية لزوجها باب كبير في دينها، وإن عليها حق الطاعة وليس لك من الأمر شيء، وأن ما قمت به من التربية والتنشئة هو واجب عليك ما دامت في كنفك ولا تسأل عنها الآن وقد انتقلت إلى عصمة زوجها.

صاح عادل: إذا كان الأمر كذلك، فوالله لن تكون له زوجة أبدًا.

ارتعد سلطان وظل مذهولًا لا يحرك ساكنًا! فإذا به ينتبه لتدخل الشيخ صالح بقوله: الرأي ما تراه غالية، سوف تختار غالية ويجب عليكما الالتزام والرضوخ لقرارها.

أسرع سلطان بالجواب وقال: قبلت يا شيخنا، جزاك الله خيرًا والرأي ما رأيت.

أما عادل فقد تلكأ برهة من الزمن، ثم حنى رأسه إلى الأرض وقال: وأنا قبلت.

وأخذ يمشي بأقدام متثاقلة لا يستطيع حملها، ودخل البيت وأقبل على غالية فقال مذكرًا لها بحلمها الجميل: يا غالية، أنتِ هنا في وطنك بين أهلك وعشيرتك وجمهورك من القراء الذين ينتظرون كتاباتك بكل شوق، لا بد أن تكوني شامخة هنا كشموخ النخل الباسقات.

اسمعي من أخيك يا غالية، سيذهب سلطان لتحقيق أحلامه وستمكثين في بلد يحيط به الشر من كل جانب مكتوفة اليدين، وستخوضين لجة تربية الأبناء بمفردك حيث سيكون سلطان

مشـغولًا بإنجازاتـه وأبحاثـه العلميـة، يجـب عـلى سـلطان التراجـع عـن قـرار السـفر أو أن يـدع حياتـك تمـشي بأمـان. ودخلـت غاليـة إلى المجلـس وقلبهـا يضطـرب بشـدة لهـول مـا أصبحـت فيـه، وبـدأ الشـيخ صالـح الحديـث فقـال: بنيتـي، إن اللـه قـد خلـق هـذه الحيـاة فجعلهـا مضطربـة، تسـتقيم تـارة وتميـل أخـرى، وأن العبـد الشـكور هـو الـذي قـد علـم أن كل غـم أصابـه هـو ابتـلاء لـه، ولا شـك أن خلفـه حكمـة يجهلهـا، وإننـي قـد أتيـت أخـيرك بـين طاعـة زوجـك والسـفر معـه، أو البقـاء والانصيـاع لرغبـة أخيـك، فيجـب عليـك أن تحكمِّـي عقلـك وأن تعلمـي أن أي قـرار سـتتخذينه هـو قـرارك الشـجاع وقـد ارتضـاه الجميـع.

عـم الصمـت وعلـت الحـيرة الوجـوه، وحامـت غاليـة بعينيهـا بـين العيـون، تـرى في عـين سـلطان الترجـي للـم شـمل القلـوب، وتـرى في عـين عـادل الترجـي بعـدم كـسر الكلمـة ونكـران جميـل الليـالي والسـنين.

وقفـت ودمعـة قـد تـرددت في عينيهـا جمعـت كل معـاني الألم، ثـم قالـت بصـوت قـوي: لا أريـد السـفر ولا أرغـب في الطـلاق، أريـد البقـاء

هنا وسأنتظرك يا سلطان حتى تعود فارسًا متوجًا حاملًا النجاح، امضِ على بركة الله، يسر الله طريقك. قاطعها ببعض كلمات لتتراجع عن القرار لكنها قالت: وأنا أيضًا لديَّ أحلامي ولديَّ رسالتي التي ستخدم المجتمع، ولن نختلف يا سلطان، ستكمل أبحاثك، بينما أكمل دراستي العليا.

تهلل وجه عادل، أما سلطان فقد استسلم مكتئبًا للقرار.

* * * * *

أيـام قلائـل وبـدأ سـلطان يتجهـز للسـفر حامـلًا حبـه المتقـد في صـدره وحلـم النجـاح الكبـير. وتمـر الأيـام وتنقـضي الشـهور وتسـتمر غاليـة في كتابـة مقالاتهـا والمـضي قدمًـا نحـو إصـلاح ما أفسـدته وسـائل الحيـاة الحديثـة في سـلوكيات الشـباب، وعـلى الجانـب الآخـر كان سـلطان يقـود فريـق الباحثـين بجـد ونشـاط عاكسًـا صـورة الشـاب المسـلم السـوي في مجتمـع قـد أطلـق أعنـة الهـوى وانجـرف خلـف الشـهوات لا يحـده حـد ولا يمنعـه وازع، حتـى تشـكلت حولـه هالـة مـن المعجبـين بأخلاقـه وسـلوكياته، يتـوددون لـه كل الـود محاولـين التعـرف عـن كثـب عـلى هـذا الشـاب الملائـكي كـما كانـوا يتصـورون، كانـت جوليـا تختلـس إليـه النظـرات أثنـاء العمـل، وتتبعـه كظلـه أينما ذهـب أو اتجـه، يذهـب لتنـاول الطعام فتتبعـه، أو يذهـب لأداء الصلاة منفـردًا فتلحقـه لتتأملـه وكأن شـيئًا تفتقـده تحـاول أن تجـده في معيـة سـلطان، وبعـد ملاحقـات اسـتمرت شـهورًا تنبـه لهـا ولحالهـا، حتـى جـاء يـوم وكان جالسًـا عـلى سـجادته قـد انتهـى مـن أداء الصـلاة، فأشـار إليهـا ملوحًـا بأنـه قـد تـم اكتشـافها،

اقتربت منه تمشي بتوءدة وقالت: أتأذن لي بالحديث معك يا سلطان؟

أذن لها مرحبًا، فجلست قريبًا منه وقالت معتذرة له: لعلك قد تنبهت لفعلي رغم مبالغتي في التخفي،

ما زلت أتتبعك مذ أن أتيت، يومًا بعد يوم ألحقك كظلك أينما وليت لأزيح الشك عن قلبي وأتحرى فيك اليقين، علِّي أجد فيك خلة أو عيبًا، ولكنك ودون أن تعلم بأمري كنت في سرك كظاهرك، وفي ظاهرك كسرك، حتى وجدت نفسي بين أدراج المكتبات أبحث عن هذا اليقين وهذا الثبات الذي أمدك بكل هذه القوة والمتانة لتسمو بفكرك وتنأى بروحك بعيدًا عن ملوثات الحياة، وحين تضطرم الملذات من حولك وتحاصرك الشهوات تمر بجانبها دون أن تلقي لها بالًا، فأي دين هذا الذي صنعك؟! وأي نبي هذا الذي قد اقتديت؟!

تهلل وجه سلطان وأجابها والسرور يكسو وجهه: هو دين يرقى بالروح والبدن،

يجنبنا الوقوع صرعى للملذات والشهوات وضحايا التضجر والاكتئاب، نقود رغباتنا إلى حيثما نشاء ولا نسلمها رقابنا لتسير بنا إلى جرف تسقط فيه قيم ومعاني الإنسان.

نظـرت إليـه جوليـا والدمـوع تقـف في عينيهـا وهـزت برأسـها ليكمـل حديثـه فقـال:

الإنسان خليفة وليس خطيئة، هكذا أخبرنا الله في كتابه،

إنـه قائـد عـلى هـذه الأرض، رسـالة وأثـر جميـل يضعـه في هـذه الحيـاة، وهـذا هـو سـبب وجودنـا عـلى هـذه الأرض ليبتلينـا اللـه أينـا أحسـن عمـلًا. كانـت جوليـا تمسـح الدمـوع وهـي تسـمع هـذه الكلـمات التـي عاشـت طويـلًا تبحـث عنهـا فقالـت بصـوت متقطـع حزيـن: لقـد عشـت طويـلًا يـا سـلطان أبحـث عـن معنـى لوجـود الإنسـان وأنشـد قيـم الخلـق النبيـل، ولكنـي لم أجـد إلا بـشرًا هائمـين عـلى وجوههـم يتخبطـون بـين لجـج الشـهوات ومعـترك الملـذات، فقـررت اعتزالهـم والعكـوف عـلى كتبـي وأبحـاثي، وحـين وجدتـك كان قلبـي يخفـق فرحًـا وروحـي تـكاد أن تطـير، وكنـت أتتبعـك وأنـا أدعـو اللـه ألا يريني منـك مـا يسـوء، فكنـت نِعـم المبتغـى والمـراد، وأنـا الآن وأنـا أجلـس بـين يديـك أسـتمع لمـا تقـول، أجـد نفـسي مسـلمة منـذ الأزل، لكنـي لا أعـرف للإسـلام سـبيلًا، فهـلا أخـذت بيـدي نحـو هـذا الديـن ليسـتكين قلبـي بعـد اضطرابـه الطويـل؟

استبشر سلطان وهو يحمد الله الذي جعله سببًا في إسلامها مدركًا بأن الإنسان إذا صدق مع الله في طلب النجاح أهداه الله نجاحات جديدة.

كان يزف إلى غالية خبر إسلام جوليا وكانت تزف إليه أخبار تزايد عدد القراء والمنصب الجديد الذي تقلدته في مؤسسة إصلاح ذات البين وقبولها في الدراسات العليا بامتياز.

وبين نجاحاتهما كان عادل يقف في انتظار انقضاء السنين ليتم زواجهما ومن ثم يبدأ في الاستقرار بحياته الخاصة.

كان عادل قد اعتاد على احتساء القهوة مع غالية في شرفتها أثناء اعتدال الجو، وفي حين كانت غالية تعد الأيام المتبقية لعودة سلطان مع انقضاء كل ليل كان عادل يتأمل وجهها وهو يشعر بالغبن والحزن الشديد لهذا الانتظار، سيمر العمر وهي في انتظاره حتى إذا شارفت الثلاثينات قد لا يعود، عندئذ يصبح كل من غالية وعادل ضحية لهذا الانتظار، فهما لا يعلمان ما تخبئه الأيام المقبلة من مفاجآت، وها هو قد بدأ يشعر أنه قد أخطأ خطأً فادحًا حين قبل بهذا الزواج.

فصارحها بائسًا:

أخشى أن ينقضي شبابك في انتظار من لا يعود.

نظرت إليه باستغراب، فقال لها:

ألا تظنين أنه قد يصادف امرأة شقراء أوفر منك جمالًا وأكثر علمًا فيقع في حبها، أو يعود فلا يراك على نفس الهيئة التي رآك عليها أول مرة؟

ردت بغضب والخوف قد أحاط بمشاعرها: يبدو أن الفراغ قاتل يا عادل، ألا تتزوج يا أخي فتطرد هذا الوسواس؟ إلى متى ستظل في هذا الانتظار؟ إنني أشعر بجرم كبير قد ارتكبته في حقك حين قررت الانتظار.

وبينما كانت غالية تقنع عادل بأمر الزواج، كانت جوليا تصارح سلطان برغبتها بالزواج منه.

لم تكن جوليا تطلب ذلك الطلب عن عبث أو رغبة في الزواج ذاته، بل أرادت أن تعيش الإسلام واقعًا ملموسًا تهنأ به وتطمئن إليه، إضافة إلى ما تعرضت له من قسوة شديدة من أسرتها حين علموا بأمر إسلامها، فأصبحت تائهة كزورق يبحث عن مرساه

ليشعر بالأمان.. كانت ترى في سلطان كل معاني الوفاء والقوة وكل صفات المسلم النبيل الذي تستطيع فعلًا الاتكاء عليه لبلوغ المراد من الحياة السامية، غير أن سلطان لم يكن مستعدًّا لتلبية هذا الطلب وأصبح يتهرب من مقابلتها بشتى الوسائل والأعذار..

كان قلب سلطان على موعد للقاء غالية، ولم يكن في وسعه رؤية طيف إلا طيفها ولا خيال الا خيالها الذي يلازمه ليلًا ونهارًا، فهي وإن كانت ابنة بلده ومدينته، إلا أنها أيضًا تحمل نفس هدفه ونفس نظرته تجاه دور الإنسان في المجتمع والحياة.

وظل في ذلك التهرب المستمر إلى أن تحينت جوليا الفرصة وكان في مطعم المركز يتناول الغداء، جلست أمامه تعاتبه بحزن: اعتدت الوضوح منك يا سلطان.

فقال لها معتذرًا:

يا جوليا،

هناك في المدينة المنورة حيث النخل الباسقات، لي عينان تنتظران عودتي كل مساء على شرفة الانتظار.

ردت جوليا وهي تحرك يديها بتعجب:

ما كنت أظن أنني سأسبقك يومًا في فهم تعاليم الإسلام، أوليس الله قد أباح لكم أن تنكحوا من النساء مثنى وثلاث ورباع؟!

ها قد أباح الله التعدد لتنحل الكثير من المشاكل.

دنا برأسه قليلًا ثم قال: تبقى رغبة القلب في هذا الأمر.

وهكذا انصرفت جوليا غير يائسة تاركة أمر هذا الزواج ليهديه الله لها كما أهداها الإسلام.

مرت أيام كثيرة وانقضت الشهور ولا تزال غالية على عهد الانتظار، حتى دخل عادل عليها يومًا وقد تبدل حاله ونفد صبره، فقال لها: مضت سنة ونصف وتبقى ما تبقى ونحن على هذا النحو من الانتظار.. وكأن الله لم يخلق بشرًا على الأرض غير سلطان! ثم انصرف يائسًا منها.

ظلت غالية تتبعه ببصرها وترقب تفاصيله وهو ينثني من الصالة متجهًا ناحية غرفته، لقد بدت على عادل علامات تقدم السن، وها هو على مشارف الأربعينات ولا يزال على العهد يا غالية. وطفق شريط الذكريات يمر أمام عينيها وهو ينصرف قبل الحصة الأخيرة من مدرسته الثانوية لينتظرها أمام باب المدرسة

وسط اتقاد الحر ولهيب الشمس يتتبع الظل على الجدران، لم تنسَه أيضًا وهو في البقالة يترجاها أن تتوقف عن إهدار ما تبقى من مال في جيبه بما لا ينفع. وتمضي في ذكرياتها بين ليالي رمضان وأيام العيد، لتقف أخيرًا على منظره وهو ينثني في الصالة تجاه غرفته ليقضي باقي يومه وحيدًا.. أخذت الجوال تقلبه بين يديها وهي تنظر في محادثاتها الأخيرة مع سلطان وتشعر بأنه قد حان وقت التضحية باستقرار حياتها ليبدأ عادل في الاستقرار. لم تكن غالية قد رتبت ما تقوله لسلطان، غير أن كل الأعذار بدت في نظرها واهية، لقد تساقط من ملكتها شعر كان في نظرها أبلغ من كل الكلام، وأخذ سلطان يقرأ الرسالة في الوقت الذي كان يشرح فيه لجوليا بعض تعاليم الإسلام..

يقرأ الرسالة مشدوهًا قد غزت وجهه جيوش الألم والخذلان.

يا غيثًا يمطر في قلبي

يا طيفًا لون أحلامي

قلبي قد أضحى صحراء

وبدت حائرة أقلامي

وعجزت أعبر عن أسفي

هيهات لحرفي وبياني

أودعتك أملًا يا حلمي

بلقاء في أعلى جنان

علم سلطان أن غالية تود الانفصال لأسباب لم يرد معرفتها، ولكنه كان يشعر أن عادلًا قد يكون وراء هذا التصرف. وبعد هذا الخذلان الصريح بأيام قلائل تم زواج سلطان بجوليا وبارك الجميع التقاء هذين العقلين العظيمين اللذين سخرا نفسيهما لخدمة العلم.

على الجانب الآخر، كان عادل يواجه معارضة شديدة من غالية وهي ترفض الارتباط بإياد،

الشاب الثري لأحد وجهاء المدينة وتجارها، ولم يكن عادل قد جمع عنه من المعلومات ما يكفي لإقناع غالية بالموافقة، إضافة إلى ذلك فقد كان إياد فاشلًا في التعليم؛ الأمر الذي أصاب غالية بالإحباط الشديد، لكنَّ عادلًا استمر بإقناع غالية بأن فشل التعليم لا يعد عيبًا لأن التعليم في وجهة نظره وسيلة للتعامل مع

تطورات الحياة، وحيث إن لدى إياد ما يكفي من المال الوفير فقد استكمل الجانب الناقص به.

وحينما أوشكت غالية على الموافقة بارك الخطوة قائلًا: انظري يا غالية إلى حالات الطلاق بين المتعلمين، إنها تفوق ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا آلاف المرات..

تنهدت قائلة: أصبح الزواج في زمننا هذا مغامرة كبيرة!

لقد قبلت يا عادل، ولعل الله أن يريني منه ما تقر به عيني.

ازدانت غالية وهي ترتدي فستانها الأبيض مغادرة المنزل الذي طوى بين جنباته أحداث ومواقف غمرتها الأيام والسنون.

وانتقلت إلى بيتها الواسع الجميل وعادل يمسك بيدها وهو يهمس في أذنها بوصية الوداع: أي عزيزتي، أذكرك أن الوعي والتواضع أساس الحياة، باستطاعتك تغيير كل السلوكيات التي قد تجدينها في إياد لا قدر الله باستيعابه وتفهمه، وبالصبر والموعظة الحسنة ستزول كل المعضلات. ثم يكمل وهو مبتسم ومتفائل: إنني متأكد أنكما ستبنيان أسرة رائعة وستضيفان إلى أسرتنا أبناء رائعين نفخر بهم. ثم توجه ناحية الباب وهو يخفي دمعاته

عنها ويقول: أستودعك الله يا غاليتي، لا تترددي في مهاتفتي إذا احتجتِ محادثتي كما تعودنا. وغادر منزلها، لكنَّ جزءًا منه لم يغادره، لقد ظل قلبه الذي كان يرعاها في طفولتها برفقتها يدعو لها بالتوفيق والسداد.

وطال هذا الفراق بسبب انتقال عادل للعمل والاستقرار العائلي في سلطنة عمان، وظل المنزل مقفلًا لأعوام طويلة ظلت غالية ترد عليه لتنظيفه كلما دعت الحاجة، في ذات الوقت الذي كان فيه إياد يرى أن عقل غالية أحوج للتنظيف مما علق به من أفكار ومعتقدات معقدة حسب وجهة نظره! وبدأت نقطة الخلاف تتسع منذ أول شهر للزواج حين صدما بكمية الخلاف والاختلاف في تفكيرهما، فكان لا يكف طوال سنين العشرة عن ذمها ولا عن توجيه الانتقادات اللاذعة لها وهي صابرة ثابتة تجادل وتنصح بالموعظة الحسنة دون الاصطدام به أو إظهار الحزن أمام ابنهما قصي الذي كان يمر بمرحلة المراهقة الحرجة.

ولما ازداد التباين واتسع الاختلاف، كانت غالية تبتعد عن مجالسة إياد حتى لا تتجلى الخلافات أمام قصي، وقضت معظم

أوقاتها إلى جانب قصي تشاركه أخبار المدرسة وتقدم له بعض الدروس.

*****

لم يكن ذلك الاختلاف والتباين أمرًا مستحدثًا، بل هو الصراع الأزلي بين الفضيلة والهوى، بين التمسك بالقيم في زمن الطوفان أو الانغماس فيه، بين تكوين الأسرة الناجحة التي تضيف إلى المجتمع أو أن تكون عبأ عليه.

كان إياد يمكث ليله على قنوات التسلية على اليوتيوب، أما نهاره فيمضيه في متابعة مشهورات السناب وتتبع أخبارهن مع أخته مريم،

أما غالية فقد كانت تمضي وقتها بجانب قصي تشرح له بعض الدروس، وبينما هما يوما على هذا الحال، كانت مريم تجلس في الركن المقابل لهما غارقة في جوالها بين مشاهير السناب، دخل إياد متظاهرًا المزاح وقال: مهلًا أيتها الكاتبة الشهيرة والمحاضرة المرموقة، دعينا نحتسِ القهوة ونتشارك اللحظات، وأخذ يصب القهوة ببطء ويقول: لو تنسم قلمك الحرية كما تنسمته هذه القهوة لغدا أروع وأفضل مما هو عليه.

نظرت غالية إليه باستغراب وهي تحاول فهمه فقال: لا تستغربي يا عزيزتي، كل ما أريد قوله لك هو أن تكفي عن هذا الانغلاق،

وألا تضعي قراءك في دائرة الجمود.

يمشي بضع خطوات ويجلس إلى جانبها وهو يرتشف القهوة ويضع قدمًا على قدم ثم يرفع صوته منتهرًا لها: تارة تحاربين المشاهير والمشهورات، وتارة تهاجمين الموضة والجمال مرورًا بالمسلسلات وبعض القنوات، لم تدعي شيئًا جميلًا إلا قدمتِ له الانتقاد، دعيهم يقدموا رسالتهم الاجتماعية بطريقتهم التي أحبها المتابعون في هذا العصر، دعي العالم يسِر حسب قانونه، إلى الأمام دومًا لا إلى الخلف يا امرأة. كانت غالية تستمع إليه بتعجب، فوضعت كوب القهوة على الطاولة وأقفلت الكتاب الذي بين يديها، وقالت: دعنا نفصل الأمر أكثر يا إياد، ولننظر في ماهية الطريقة التي أحبها هؤلاء المشاهير والمشهورات، وما هو نوع المحتوى الذي يقدمونه للمتلقي على الصعيد العلمي والاجتماعي وغيره، ثم دعني أفصل في مشهوراتك اللاتي تتابعهن باستمرار، عندما تظهر المشهورة وهي ترتدي أفخر ماركات الملابس وقد علقت على عنقها سلسالًا من أرقى وأغلى المحلات في العالم، سافرة الوجه والشعر تقلب عينيها وفمها يمينًا ويسارًا لتضع بين يديك فكرة سخيفة لا ترقى للعرض

أو المشاهدة، ثم تأتي لتعرض موضوعها من أغلى الفنادق وأفخم المطاعم وتضع خلفها من الديكور ما لا يستطيع الإنسان العادي أن يشتريه، فهل هذه مرشدة أم معلنة أم محرضة على التفاهات والسقوط؟

ثم عمَّ هي تتحدث وتنصح؟! هي لا تتحدث إلا عن الموضة والأسواق ولا تثير إلا قضايا لتخريب الأسرة وتفكيك ترابطها لتحقق المزيد من الشهرة والمزيد من جمع المال.

قلبت مريم الجوال بين يديها وهي تنظر إليها نظرة طويلة ثم قالت: الأمر ليس كما تعتقدين يا غالية، إن أمر اللباس حرية شخصية، وحق الكلام حرية فكرية، وهي تفعل ما تريد وتقول ما تشاء.

هزت غالية رأسها بتعجب وهي تقول: إذا كان الأمر حرية فكرية، إذن دعيني يا عزيزتي أتعرف إلى كمية البحوث العلمية والاكتشافات النظرية والتطبيقية التي قدمتها هذه أو تلك المشهورة، وكم هي الإضافات التي قد أضافتها لمكتبات الجامعات لتسير بهذا الوطن في ركاب التقدم والرخاء، لتخاطب الفكر والعقل

بحرية فكرية تامة ولنمنحها ثقتنا، ثم إن اللباس الذي تعتقدين أنه حرية شخصية في جوهره ليس كذلك، ولن أنظر إلى احترام خصوصية المجتمع في هذا الجانب، ولكن دعيني أنظر إليك يا مريم، كم استنزفتِ من أموالك لتقليد هذه وتلك، وكم هي الأموال المهدرة في كل بيت في ظل هذا التقليد الأعمى؟

ثم همت بالخروج وهي تقول: تعلموا أين تضعوا ثقتكم يا سادة؟

ظل إياد يتتبعها بنظرات السخط، ثم التفت إلى مريم وقال: ألم تستطيعي طوال هذه السنين أن تغيري منها شيئًا؟! يا لها من معقدة! والله إنني لأحتار، أي نوع من الصداقة اجتمعتما عليه رغم كل هذه التناقضات!

تضحك بشدة وتقول: حسنًا، نحن نحتاج في هذا المنزل لشخص كغالية يردنا إلى الصواب كلما انجرفنا بعيدًا.

هز رأسه متظاهرًا بالاضطراب لما يسمعه وقال لها: أعدك أن يكون نواف لك بالمرصاد كلما هممت بالانجراف.

فزعت من قوله وهي تستعيذ بالله من الشيطان، ثم قالت: لا تفسد يومي بهذا الاسم، أخبرتكم مرارًا أنني لن أتزوجه ولو كان

آخـر رجـل عـلى هـذه الأرض. دنـا برأسـه متظاهـرًا الابتئـاس لحالهـا ثـم قـال :إذن يؤسـفني يـا عزيـزتي أن أخـبرك أن أبي قـد عقـد قرانـك ليلـة أمـس ونحـن في انتظـار اكتـمال منـزل نـواف لإتمـام الـزواج.

أخـذت تبـكي وتولـول وتدعـو عـلى نفسـها بالمـوت وهـو يؤمِّـن خلفهـا سـاخرًا منهـا، ثـم أمعـن في عنادهـا وهـو يدعوهـا أن تشـاركه رقصتـه الأجنبيـة ابتهاجًـا بهـذا الخـبر السـار، وأخـذ يسـحبها مـن يدهـا وهـي تبـكي وتدفعـه بعيـدًا، فالتفـت إلى قـصي وقـال: تعـالَ أنـت وشـاركني الرقـص،

فرد قصي بخجل: أعتذر يا أبي، لا أجيد هذا النوع من الرقص.

فنظـر إليـه وهـو يتمايـل يسـارًا ويمينًـا وقـال: إذن فاذهـب وارقـص العرضـة مـع أمـك.

وأخـذ ينـدب حظـه ويقـول: مـا الـذي جنتـه يـداك يـا إيـاد كي تحـاط بهـذه الأسرة التقليديـة!

****

وهكـذا قسـمت المقاديـر أقدارهـا، سـلطان وجوليـا يتشـاطران النجاحـات، نجاحًـا تلـو الآخـر،

ويتقاسـمان أدوار الحيـاة في تربيـة ابنيهـما الناشـئين لتحفيظهـما القـرآن وتقويـم لسـان العربيـة لديهـما،

بينما تعيش غالية الغربة في أسرة تختلف عنها اختلافًا كبيرًا.

لكـن ثمـة أشـياء خففـت هـذا الانهـزام العائـلي الـذي عاشـت فيـه، لقـد وجـدت في قـصي متنفسًـا واسـعًا لاستنشـاق عبـق الأمـل، لقـد كان لهـا جانـب مـشرق للحيـاة، يضمـد جراحهـا حـين يشـتد والـده عليهـا بالنقـد، يجلـس معهـا أوقـات الفـراغ ويسـتمتع بحديثهـا وتسـتمتع بحديثـه، فأخـذت تـزرع فيـه مبـادئ الأصالـة، وتغـرس في قلبـه القـوة لمواجهـة تقلبـات الحيـاة ليكـون شـابًّا مسـتقلًّا برأيـه لا تقـوده آراء التافهـين ولا ينخـدع بمظاهرهـم المزيفـة، وكان لهـا مـن الجمهـور العريـض مـا تطيـب بـه نفسـها ويأخذهـا نحـو فسـحة الأمـل.

وفي وسـط هـذه الأسرة المتخبطـة بـين الانفتـاح وبـين القديـم، لم تكـن غاليـة تواجـه هـذا الطوفـان منفـردة، بـل كانـت مريـم تتقاطـع معهـا وتشـترك في آراء كثـيرة.

كانت مريم مقبلة على الحياة برقة ورهافة، ولكنها دائمًا ما تجد نفسها متعبة مع كل يوم يمر معلنًا اقتراب موعد زفافها، فكانت تجد عند غالية مستودعًا لأدمعها وضمادًا لأحزانها. وبينما كانت غالية تحاول إصلاح ما أفسدته الأسرة في قلب هذه المسكينة، كانت أيادٍ أخرى قد امتدت بشكل أسرع.

كانت مريم تفكر كثيرا في حياة غالية وإياد وهي ترى في غالية نموذجًا حيًّا لمن قبلت بحياة لم تخترها ولم تجد فيها السعادة، فأرادت أن تتثبت أكثر لمصيرها إن قبلت بنواف زوجًا.

فجلست إلى جانبها في مكتبها ساعة من الوقت تنظر إليها، ثم تعود فتنظر إلى مقاطع السناب وغالية منشغلة في تعديل المقال. انتبهت لها فسألتها بصوت خافت: ما الأمر يا مريم؟

اقتربت منها وقالت بصوت منخفض وكأنها تسارها: أنتِ لم تجدي نفسك في هذه الأسرة يا غالية، لم لا تطلبين الطلاق أو ترفعين خلعًا فتشتري سعادتك وترتاحي في حياتك؟

وضعت غالية القلم جانبًا وقد فطنت لها وقالت: يشقى من يظن أن الحياة تهديه السعادة.

ثم قالت: يا مريم، أتعلمين أين تكمن السعادة؟

إنها تكمن في القلوب التي قد علمت أن الله قد أحاط بها علمًا وأنه قد أحاط بأحزانها وأفراحها وقادر على مداواتها بالأجر والثواب أو الخلف الجميل، فتمضي مطمئنة إلى قدر الله لتمارس طقوس حياتها بثبات ويقين.

صمتت قليلًا ثم أكملت: يخطئ من يظن أن سعادته في الحياة تدور حول شخص ما وأنه بدون ارتباطه بذلك الشخص أو حتى بدون مفارقته لن يستطيع أن يعيش، هناك مصادر أخرى للسعادة، كعملك مثلًا أو هواياتك أو أبنائك وغيرها الكثير، إن السعادة لا ترتبط بالأشخاص يا مريم، إنها ترتبط بمقدار التفاؤل الذي يسكن القلوب. كانت غالية تعالج أوجاع مريم بهذه الكلمات التي خرجت منها دون ترتيب مسبق.

خرجت مريم من الغرفة وهي تقول: ليتني أستطيع أن أكون مثلك يا غالية! ويصطدم بها قصي في الممر وقد سمع مقالتها فرد ضاحكًا: لن تستطيعي.

ثم دخل إلى أمه مبتسمًا وقال لها:

أيتها الصحفية الشهيرة والمحاضرة الرائعة، ما هو برنامجنا ليوم غد؟

أخذت تسترجع المواعيد في ذاكرتها: إمممم، غدًا هو يوم السبت، سنصلي الفجر في مسجد رسول الله، ثم نذهب لأداء صلاة الضحى في قباء، وكما جرى عليه برنامجنا، ستحضر معك كتاب السيرة النبوية ثم تقرأ عليَّ وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزوله في قباء، وعند العودة إلى البيت ستصبح حرًّا في باقي وقتك.

قبل رأسها وهو يقول: شكرًا لك يا أجمل أم في الدنيا، سيكون غدًا يومًا مميزًا. قاطعته قائلة: لن أوصيك.

فابتدرها ضاحكًا: الوصايا العشر: لا تمكث طويلًا على الجوال، لا تلعب العنف، لا تدخل مواقع الضلالة، لا لا لا... لقد حفظتها جميعًا. وخرج ضاحكًا وهي تضحك وتدعو الله له بالمزيد من الصلاح.

وهكذا عاش قصي في بواكير صباه مقتربًا من أمه ومتصلًا بها وهي تصقل شخصيته وتهذبها، حتى بدأت توجهاته تتضح

وتتجلى يومًا بعد يوم، فبدأ القلق يتسلل إلى قلب غالية؛ خشية أن تتلقفه الأهواء والملذات، أو أن يتأثر بسلوك والده فينحرف عن مساره القويم، مسار الفرد الصالح النافع.

لم يكن ذلك الشعور مجرد شكوك أو أوهام، بل يقينًا ازداد وهي تستمع لنصائح إياد لها وهما يتناولان الطعام في حضور قصي: ما أشهى طبخك يا غالية! لو تقومين بتزيين عقلك وتصرفين عنه هذه العقد لغدوتِ أروع! ثم يكمل بألم: آهٍ يا غالية.. كم تمنيت أن نتجول معًا على شواطئ البحار في الخارج وأن نضحك سويًّا في المسارح، وأن نأكل الفشار معًا على مقاعد السينما كما يفعل الجميع!

لقد حُرمت من ذلك كله بسبب قضاء وقتك في إصلاح ذات البين وإرشاد التائهين في كتابات المقالات وتأليف الكتب.

يكمل مبتئسًا: ألا تلتفتين لزوجك فتصلحي ذات بينكما؟ ثم تنهد بحنق وقال: وليتك تقتصرين بهذا الجمود على نفسك، بل إن أفكارك التقليدية قد امتدت لتطال قصي، حتى أصبح كالعجوز بين أصحابه، يسافرون لقضاء الإجازات ولا يسافر، يرقصون ويلعبون

بينـما هـو مقيـد بالقوانـين!

هـلَّا فككـتِ القيـد عنـه وتركـتِ لـه الحريـة؟ إننـي بحاجـة لـه ليشـاركني السـعادة. وأخـذ يقلـب عينيـه وهـو يتذكـر مصادر السـعادة لديـه: الـراب، نعـم نرقـص الـراب، إمممـم.. نذهـب للسـينما، يسـتطرد: نعـم السـينما، نسـافر ونكحـل العينـين بجـمال الشـقراوات. صرخـت غاليـة بغضـب: كـف عـن هـذا الهـراء وتوقـف عـن هـذا السـقوط أمـام الفتـى.

كنـت أتمنـى أن تقـول سـأذهب بـه إلى المرصـد الفلـكي فنسـبح بـين الكواكـب والنجـوم، وأذهـب معـه إلى سـباق صناعـة الروبوتـات والتقنيـات في المحافـل والمهرجانـات العالميـة، إلى سـباق السـيارات والدراجـات والخيـل وحضـور الأنديـة الرياضيـة والثقافيـة والتجـول في معـارض الكتـاب والمتاحـف وممارسـة الحيـاة بنقـاء وصفـاء. التفتـت إليـه بحـزن وقالـت: مـا أرخـصَ سـعادتك!

ثـم انصرفـت وتركتـه مـع قـصي قـد خجـل مـن موقفـه، فقـال لـه قـصي: لا تفـتر عـن مشاكسـة أمـي رغـم انتصارهـا عليـك في كل مـرة. تمتم قائلًا: نعممم.

ومـرت الأيـام واقـترب اليـوم الـذي سـتُزف فيـه مريـم إلى بيتهـا الجديـد، وأصبحـت تعـد الدقائـق والثـواني، لتتغـير إشراقـة وجههـا إلى ذبـول دائـم.

دخلـت عليهـا غاليـة وهـي جالسـة في ركـن الغرفـة جِلسـة المهمـوم، فقالـت لهـا بصـوت دافـئ: يـا مريـم، لعـل الخـير فيـما تكرهين!

فـردت عليهـا بحـزن: تعسًـا لقوانـين ابتكرهـا الظلمـة ونهجهـا الحمقـى! أيـن يفارقهـم ضميرهـم حـين يمضـون في تخطيـط ورسـم حيـاة الآخريـن حسـب أهوائهـم؟! لكنـي واللـه سـأفعل فعـلًا أجعلهـم يندمـون بـه عـلى تصرفاتهـم الظالمـة. ارتعـدت غاليـة مـن هـذا الـرد وقالـت: أتمنـى أن تضعـي في الحسـبان النتائـج التـي سـتنتج عـن أي قـرار تتخذينـه. فقالـت: ليـس لـديَّ وقـت للتفكـير في المسـتقبل، يجـب أن أتخلـص مـما أنـا فيـه الآن.

لم تكـن غاليـة عـلى علـم بـأن مريـم تخطـط للهـروب إلا في اليـوم التـالي، حـين اسـتيقظت الأسرة عـلى هـذا الخـبر الصـادم، فقـد توجهـت خـارج الوطـن هربًـا، إلى السـويد تحديـدًا، مـع شـاب دبـر لهـا خطـة الهـروب منـذ أشـهر وأغراهـا بالـزواج وتـم الأمـر كـما خطـط لـه. انتـشر

الخبر انتشار النار في الهشيم مع تداول مقطع على تويتر ظهرت فيه مريم وهي تندد بالزواج الإجباري، ثم تلتها مقاطع أخرى وهي تدعو لإسقاط ولاية الرجل، وضج المغردون والشباب على بقية وسائل التواصل بين مؤيد ومعارض، وكان ما أرادته مريم، فقد كان الجزاء فعلًا قاسًيا؛ حيث أصيب الأب بجلطة أقعدته عن الحركة، وتنكس رأس القبيلة بالكامل؛ حيث جن جنونهم وتعاهدوا على قتلها إذا ما فكرت بالعودة إلى الوطن في سبيل غسل العار الذي لحق بهم.

ومع سرعة تداول الأخبار، كان الخبر قد وقع على كل من جوليا وسلطان موقعه من الدهشة والاستنكار لمثل هذه الدعوات من إسقاط الولاية وغيرها من الدعوات الباطلة. حاولت جوليا فهم حقيقة هذه الدعوة، فلقد كانت أسلمت زمام حياتها لرجلها سلطان، وأسندت ظهرها متكئة عليه في كثير من أمور الحياة الصعبة، وبدأت في تنفس بعض أنسام الراحة والاستقرار بعد عناء طويل، كما بدأت نفسها تتوق لأن تكمل حياتها في مدينة رسول الله لتنعم بحياة تكاملية هانئة مع أهل المدينة، وإذ ببحار الحيرة

تلاطمها، والأسئلة تتلقفها من كل صوب، ما الأمر يا سلطان؟

هكذا وجهت إلى سلطان السؤال وهي تخشى الجواب، تخشى أن يكون الجواب بأن الفتيات يطمحن لأن يكنَّ على ما كانت عليه من الحيرة والاضطراب.

كان سلطان عميقًا جدًّا في الجواب: حينما يبنى الخطأ على خطأ يصبح الوضع كارثيًّا يا جوليا.

لم تفهم جوليا مقصده، فنظرت إليه نظرة الاستفهام، فقال: أخطاء في العادات، وأخطاء في رفضها، وأخطاء في فهم معنى التحرر، وأخطاء في رفضها وأخرى في تقبلها، كل هذه الأخطاء قد نتجت بسبب سيلان كثير من المفاهيم الجديدة للحرية عند بعض الشعوب، في حين أن مجتمعنا كان ما يزال منغلقا حول نفسه.

ردت مستغربة: لمَ كل هذا التناقض يا سلطان؟!

فقال مبتئسًا: إنني أعزو كل هذا الصدام إلى سرعة الاتصال بين أفكار الناس في بقاع الأرض دون فلترتها أو تنقيتها بما يتناسب مع موروثنا الثقافي والاجتماعي؛ فتشربها بعض المتعطشين للانطلاق نحو الثقافات الأخرى ورفضها آخرون وحدث ما حدث.

أسند ظهره على المقعد وأردف قائلًا: إننا نحتاج إلى الآلاف من أمثال غالية، نحتاج إلى إعادة توعية المجتمع، سواء التقليديين أو المتحررين بالتثقيف والتوعية عبر مدرجات الجامعات أو منصات التواصل، أو كتابة الكتب والرسائل، بحاجة أن نبين ونشرح لشبابنا أنهم ليسوا كسائر المجتمعات، بل إن مجتمعهم له مميزاته وثقافته وتراثه الأصيل الخاص به ويجب أن نمضي قدمًا لتطوير أنفسنا في ظل هذه الامتيازات التي نملكها وألا ننجرف وراء الدعوات الغربية؛ فتتميع هويتنا ويطمس تاريخنا.

تنهدت جوليا وقالت: ليتكم تفعلون!

على الجانب البعيد كانت غالية تتابع الرأي العام على منصات التواصل وكانت تعلم يقينًا أن ما فعلته مريم هو عين الخطأ، ولكنها كانت تدرك أن هناك خطأً أكبر قد حرض على وقوع هذا الخطأ.

وهنا أرادت غالية أن تضع يدها على الجرح مباشرة في مقالها الأسبوعي فبدأت النقد:

((أيها الآباء.. أيها الإخوة..

وقد ولاكم الله قيادة الحياة، فهلَّا كنتم أهلًا لها؟

علامَ ترغمون فتياتكم على الزواج بمن لا يرغبن؟!

لم تكسرون قلوب القوارير؟!

لم تهرقون الدموع؟!

ستسقط كل دمعة منها كالسم في أكبادكم

ستغدو كل آهةٍ لفحة من سعير يجتاحكم،

لكنكم ستكابرون، ورغم العناء ستديرون لهن أظهركم،

وحين تتخذ قرارها وتلوذ بالفرار سيُجن جنونكم وستحترق أقلامكم وتشتعل وسائل تواصلكم وستغدون يدًا واحدة تهدد وتندد بقتلها إن عادت إليكم)).

اختلفت العيون في قراءة مقال غالية بين عين دامعة وأخرى غاضبة،

وبعضها حائرة حزينة كعين سلطان الذي ظل يتساءل بحيرة: يا ترى هل وجدت غالية نفسها بين هذه السطور؟

أما القراء على الوطن البعيد، خصوصًا أولئك الذين يجيدون القراءات الناقصة، فقد اشتعلوا غيظًا وجن جنونهم وهم يتهمونها

بتحريض فتياتهم على الهروب؛ فعلا الضجيج وارتفعت الهتافات المنددة من كل حدب وصوب لمعاقبة المحاضرة الجامعية والكاتبة الشهيرة، وهنا وقفت غالية وحيدة لم تجد يدًا تسندها أو شخصًا يستمع لها ومضت محاولة التبرير، لكن الصراخ كان أعلى؛ فأوقفتها الصحيفة اعتذارًا للقراء مدة شهر.

ومرت شهور تتلوها شهور ولم تطلب الصحيفة من غالية أن تعود للكتابة، ومن زيادة البلاء الذي أحاط بها، أن تم عزلها من مؤسستها لإصلاح ذات البين، لكن غالية لم تكن تعرف الانهزام، وكانت كلما وقعت في مأزق مظلم أوجدت منه فرجة جديدة للحياة، فأصبحت أسيرة لقلمها الصدوق، وأخذت تعيش وقتها الطويل في كتابة رواية جديدة سردت فيها بعض قناعاتها وأفكارها حول جوانب من الحياة. وبينما هي كذلك، إذ تصلها رسالة إلى بريدها الإلكتروني فيها:

(عزيزتي الدكتورة غالية، قد علمنا ما حل بك، وإننا هنا إذ نمد لك يد العون، هلمي إلى أخواتك للحاق بركبهن لمنع تسلط الذكور عليهن وإلى فك القيود عنهن وتحريرهن).

كانت غالية تؤمن بأن العدل لا يأتي إلا بالإذعان لشرع الله، وأن هذه الدعوات هي دعوات باطلة ستعود على المرأة بالخسران العظيم.

فظلت تتردد بين بيتها ومحاضراتها التي تلقيها في الجامعة، هناك؛ حيث استطاعت أن تكسب ثقة ورأي الطالبات.

ومرت الأيام وهي وحيدة في منزلها مع أنيسها القلم،

فيدخل عليها قصي وهي منهمكة في كتابة روايتها، وقال لها بصوته الحنون: أمي الحبيبة، ما هو برنامجنا ليوم غد؟

ابتسمت وقد بدا عليها آثار التعب وقالت: غدًا الثلاثاء سيكون موعدنا مع جبل أحد.

ابتسمت وهي تستيقظ من خيالها حين لم تكن تخاطب سوى الخيال! فقصي قد غادر الوطن منذ شهر لقضاء إجازته مع والده عند عمته في اليابان بناء على رغبته الشديدة.

وفي هذا الصمت المطبق على المنزل، كانت غالية تخاطب الخيال تارة، وتكمل كتابة روايتها تارة أخرى، وكأنها سمعت طرقًا خفيفًا على باب المنزل، فقامت إليه متثاقلة، لتقف في ذهول

وكأن الزمان قد توقف، أو بالأصح قد عاد إلى الوراء! كانت لحيته تنساب بهدوء إلى منتصف صدره وينسدل شماغه بوقار حول كتفيه، مد يديه المرتعشتين شوقًا ليعانقها، فارتمت نحوه تعانقه وهي تجهش بالبكاء، وأخذت تقبل رأسه ويديه بقبلات خالطتها الأشواق وتقول: اشتقت لك يا أخي وأبي وقرة عيني، وهو يحضنها ويلفها بالأمان. أمسكت بيده، وطارت به ناحية الغرفة، وأخذت تتأمله وتدور حوله تخشى أن يكون ذلك وهم أو خيال!

أمعنت فيه النظر وهي تقول: لقد ازداد وزنك وأصبحت أكثر وسامة وشبابًا.

فجلس ضاحكًا وهو يقول: وأنتِ أيضًا ازددتِ رقة وجمالًا.

سمعت صوت ضحكته وتيقنت أن هذا واقع، إنها نفس الضحكة وذاته الصوت الحنون، جلست إلى جانبه، تمسك بيديه وكأنها تتشبث بالحنان المفقود منذ أعوام، نظر في عينيها وقد بدا فيهما الحزن والذبول، ربت على كتفها بدفء وقال: أي غاليتي، ما هذه الأخبار التي وصلتني! لقد عُزلتِ من مجلتك وعملك في وقت واحد، أخبريني يا غالية ما الذي حدث لك في غيابي؟

ردت وهي لا تريد أن تستعيد من ذاكرتها شيئًا غير ذكريات الطفولة الجميلة التي قضتها معه وقالت: هكذا هي الحياة، تميل مع من يمشي فيها مستقيمًا حتى توقعه، وتبتسم لمن فيها يميل! استنكر عادل، كيف يمكن لهذا الإحباط أن يتسلل إلى قلب غالية المفعم بالحياة وقال: كيف تمكن هذا الإحباط منك؟!

فقالت: لقد تسلل اليأس إلى قلبي منذ أمد بعيد.

وكأنها قد صفعته بهذه الكلمات صفعة أيقظت في أذنه صوت أحرفها الأخيرة التي كتبتها في مقالها الأخير:

«ستغدو كل آهةٍ لفحة من سعير يجتاحكم».

وأخذ يخفي أحزانه خلف نظراته الحائمة في أرجاء الغرفة، يلتهب بين نارين، نار الألم لما حل بحياة غالية في ظل هذا الزواج الفاشل، ونار النجاح الذي حققه سلطان في السويد، ويقطع هذه الأوجاع بقوله: ألم أخبرك يا غالية؟ لقد أرسل إليَّ سلطان دعوة لحضور الجائزة العالمية التي سيتسلمها وإنني مسافر إلى السويد لمشاركته لحظة التتويج. ارتبكت وهي تسمع كلمة التتويج ارتباكًا شديدًا، وقامت إلى المطبخ لإحضار العصير وكأنها غير مبالية، كانت

تصب العصير في الكأس وتعاتب نفسها بصمت (لقد نجح سلطان في تحقيق حلمه الذي مضى من أجله، أما أنا فقد خسرت كل شيء: زوجي الذي يزداد كل يوم بُعدًا عني، زاويتي في الصحيفة، عملي في المؤسسة، كتبي التي لاقت تراجعًا في المبيعات، أما مريم فقد أخذتها أيادي المغررين من بين يدي وأصبحت كل يوم في مقطع تندد وتزمجر بشيء جديد)، تنهدت وقالت: (ماذا عنك يا قصي؟ ليتني أعلم بما تفكر له!).

وأصبح العصير ينساب على المنضدة كانسياب هذه الأفكار، لم يردعها إلا يد عادل وقد أمسك بيدها لتكف عن الصب، أو بالأصح لتكف عن التفكير، فقال لها وقد شعر بما كانت تفكر به: هذه ضريبة النجاح يا غالية، لا بد أن تقف أمامك الظروف، ولكن يجب أن تكون ثقتك بالله كبيرة لأجل هذا الوطن، لأجل هؤلاء الشباب الذين ينزلقون يومًا بعد يوم في هاوية التغريب حتى إذا انسلخوا عن تراث هذا الوطن شعروا تجاهه بالغربة فتنكروا له دونما شعور، تمسكي برسالتك، إنما نحن حملة رسالة يا غالية ويجب التحمل لأجلها، وها قد تبقى أمامك طالباتك

عـلى مدرجـات الجامعـة، في هـذا المـكان ستسـتطيعين صناعـة المواطنـة الصالحـة ذات القيـم الأصيلـة.

وبعـد هـذا اللقـاء الـذي غـذى فيـه عـادل غاليـة بكبسـولات الأمـل غادرهـا متجهًـا إلى السـويد.

*****

لحظات تفوق الوصف، لحظة استقبال سلطان لعادل بعد فراق دام أكثر من ١٦ عامًا، لقد كان لقاءً مليئًا بالمشاعر الجارفة بالشوق وبعض العتاب الصامت الذي كان واضحًا في تصرفات سلطان حين كان واقفًا بين ابنيه ماجد وأمجد وهما يرتديان الثياب والأشمغة، كان سلطان يرسل لعادل رسالة صامتة لكنها أفصح من كل الكلمات، مفادها أن الإنسان السوي كالغيث النافع، أينما حل يؤثر إيجابًا ويزهر ولا يتأثر بالسلبيات.

وأنه إذا نشأ وترعرع على حب الله والإخلاص لوطنه؛ لن تؤثر عليه مغريات الحياة، وها هو سلطان يرفض كل العروض والجنسيات التي أتته من مختلف الدول ويأبى إلا أن يمثل وطنه في كل زمان ومكان. استوعب عادل هذه الدروس بينما كان ماكثًا في منزل سلطان يرى صلاح ولديه وسكينة المنزل الدافئ الناجح على شتى الأصعدة، فيغرق في ذكريات القديم ويخاطب نفسه: كنتِ محقة يا غالية!

لكن غالية لم تكن منشغلة بمراجعة الذكريات، فقد كانت منشغلة في حياتها ومنسجمة في كتابة روايتها الأولى في مكتبها

الهـادئ، وبينـما هـي كذلـك، إذا بصـوت الجـوال يـرن برقـم مـن السـويد، أخـذت الجـوال عـلى عجـل معتقـدة أنـه عـادل، ولكنهـا كانـت المفاجـأة، كان الصـوت صـوت مريـم، لكنـه يحمـل في نغماتـه الكثـير مـن النـدم:

يا غالية الأمر أكبر مما نتصور ونعتقد.

تقطـع الـكلام بالبـكاء وغاليـة تسـتمع بقلـق: «يـا غاليـة الأمـر ليـس حريـة في اختيـار الشريـك أو في حريـة اللبـاس أو نمـط الحيـاة، الأمـر أخطـر مـن ذلـك، إنهـا حبـال محكمـة قـد نيطـت حـول مجتمعنـا للقضـاء عليـه، إنهـا مؤامـرة للإجهـاز عليـه مـن هـذا الجانـب، جانـب النسـاء يـا غاليـة.

لقد كنتُ فخًّا يا غالية لينصبوا من قضيتي فخًّا أكبر.

إننـي لم أدرك ذلـك إلا متأخـرًا جـدًّا، حـين خالطتهـم وحـين رفضـت بعـض مخططاتهـم، أبغضـوني ولم يحترمـوا حريـة تفكـيري وقناعـاتي، فقذفـوني بعيـدًا ولم تشـفع لي أعـمالي السـابقة، وأنـا الآن وحيـدة لا أجـد مـأوًى ولا ملجـأً ألتجـئ إليـه». تنهـدت غاليـة وهـي تـدرك أن هـذه النهايـة التـي كانـت سـتعلمها مريـم في آخـر المطـاف. ردت عليهـا

مطمئنة لها: «لا تقلقي، أخي عادل في السويد، سأخبره بأمرك وسيساعدك إن شاء الله».

وأغلقت جوالها وهي تفكر ما إذا علم إياد بموضوعها وكيف تقنعه بالعفو عنها؟

كانت غالية تعلم أن القيام بأمر كهذا أشد من المحال، وكانت تفكر أنه ربما كان قصي قادرًا على حل هذا الإشكال، ولكن ذلك سيكون بعد سنوات عديدة، حين يكبر ويستطيع تمرير قراره على الجميع. وبينما هي تفكر فيه دخل عليها الغرفة مبتسمًا: أمي الحبيبة، منذ عودتي من اليابان لم نكمل برنامجنا اليومي، فرحت بشدة لهذا الاهتمام وقالت: غدًا السبت سيكون موضوعنا عن غزوة بدر، تبسمت وهي تتمنى وتقول: كم أتمنى أن أذهب بك إلى بدر يا قصي لترى آثار المعركة وتتحسس آثار رسول الله! ابتسمت مرة أخرى بشوق وهي تقول: لا يزال المكان شاهدًا على المعركة، تلك الرمال الحارة والجبال الثابتة في مكانها منذ الأزل تتعاقبها الأجيال، لكنها لو استُنطقت لنطقت، ولو نطقت لدمعت من ألم ما رأت على رسول الله وأصحابه، ثم استطردت

قائلة: ما رأيك يا بني أن نطلب من أبيك أن يأخذنا إلى بدر في رحلة؟ لم أطلب منه طلبًا كهذا من قبل، أظنه سيقبل، وذهبا إليه على عجل يستبقان الممر ويضحكان، ودخلا عليه وهما مستغرقان في الضحك، نظر إليهما نظرة استهجان، وكان يقلب الجوال غارقًا بين مشاهير السناب وقال: إن ما يضحككما غالبًا لا يضحكني، وما يسعدكما أيضًا لا يسعدني، فقطعت غالية الكلام وهي مستبشرة وقالت: حسنًا، سنتفق اليوم على السعادة.

نظر إليها غير مرحب بمبادرتها وقال: ماذا تريدين؟

جلست بجانبه وقالت: نريد الخروج من المدينة في رحلة قصيرة.

تهلل وجهه ورمى بالجوال جانبًا وكأنه لم يصدق ما سمع، أمسك بيدها وقال: أخيرًا يا غالية قلتِها، لقد انتظرتها منذ زمن بعيد حتى أصبت بالقنوط، ولكني الآن أقولها لك وبكل سرور: كل دول أوروبا ستكون في خدمتك: مطاعم، متنزهات، مراقص... ثم يستدرك خوفًا: لا لا يا عزيزتي، سنذهب بدلًا منها للسينما، هكذا أليق وأقوم، أما بطاقتي البنكية ستكون رهن إشارتك. يتنهد بسعادة: كم تمنيت هذا اليوم الخيالي أن يصبح واقعًا ونعيش فيه

كباقي البشر!

كان قصي يقبض على قلبه بقوة وهو يراقب الانفجار الذي سيحل بعد وقت قصير، كان يتمنى أن تقبل أمه العرض ويتم الاتفاق، ولكن غالية لم تكن لتساوم أو تداهن في قناعاتها، لم تكن غالية امرأة معقدة، ولكنها كانت تعلم يقينًا أنها إذا قبلت العرض فسيحدث الاختلاف في اختيار أماكن التنزه والخروج، لن تقبل بالسينما أو المراقص أو الأماكن التي تتجلى فيها المحرمات، هكذا كانت غالية تعيش على مبدأ «العينان المبصرتان معًا، فإما ظلامًا وأما ضياء» لا تعرف المداهنات أو الحلول النصفية.

قالت وقد اكتست بالإحراج: الأمر ليس كما تعتقد، كنت أريد أن نذهب إلى بدر ليرى قصي آثار المعركة.

حدق إياد فيهما وهو لا يصدق ما تقول، ثم صاح وهو يشد على شعره: يا أبا جهل، يا أبا جهل، أين كنت حين قدمت غالية إلى هذه الحياة!

يا ام جميل ياااا عكرمة..

ويحكم يا قوم!

من أنتم؟ من أنتم؟

استلقى قصي على المقعد ضاحكًا حتى كاد أن يتوقف قلبه، أما غالية فقد اكتفت بالتعجب ولاذت بالفرار، وأما إياد فقد ظل وقتًا طويلًا ينشد أشعار الشنفرى ويهتف ببقية العرب.

في هذا الوسط المختلف عاش قصي متقلبًا بين حياة المبادئ الأصيلة وحياة اللامبالاة، ولكنه الآن يكبر، وبدأت شخصيته تستقل عن أبيه وأمه، وأصبح تأثير كل منهما عليه ضعيفًا.

في اليوم التالي أخذت غالية التدابير السريعة لمساعدة مريم، وها قد جاء سلطان وعادل ليأخذا مريم إلى البيت، كانت مريم تمشي معهما بخجل شديد وهي تعاتب نفسها وتجلد ذاتها على ما أقدمت عليه من سب وشتم ودعوات لإسقاط ولاية الرجل وها هي الآن لم تجد يدًا تسندها غير يدي من بذلت جهدًا جهيدًا لتشويهه وتقليص دوره، أدركت مريم في وقت متأخر جدًّا أن الله قد خلق الرجل قويًّا صلبًا ليحمي المرأة الضعيفة من فواجع الأقدار، وأدركت أيضًا أنه لا يجب أن يؤاخذ المصلح بذنب المفسد، فما فعله إياد وأبوها في حقها لم يكن حاصلًا في كل بيت

ولا في كل أسرة في الوطن، وأدركت أن ما قامت به هو خطأ كبير في حق سكون المجتمع.

وها هي الآن تجلس أمام سلطان وهو يعاتبها على فعلها، بينما كانت تحاول التبرير عن خطئها أمامه وتقول: كان الهرب هو سبيلي الوحيد، وكانت دعواتي لإسقاط الولاية ردة فعل لظلم تعرضت له.

فقال لها مذكرًا: كان بوسعك اللجوء للقضاء يا مريم. فردت باستنكار: أي قضاء تقصد؟! وقد علمت أن الفتاة إذا رفعت قضية على أهلها يستعبدها زوجها ويذلها ويستغل نقمتهم عليها؛ فيسومها ألوان العذاب كما فعل هشام معي، وتصبح عرضة الضياع كحالي الآن ثم أخذت بالبكاء، فقال لها: عدت لتجيبي عن نفسك يا مريم بأن الأهل مصدر حماية للفرد وأنه بدونهم عرضة الضياع.

فتدخل عادل بالكلام وقال: ولكن يا سلطان بعض الأهالي يضغطون على أبنائهم ويعرضونهم لمثل هذه الابتلاءات، إما بسبب تحكمهم الشديد أو تسيبهم المفرط.

ابتسم سلطان وهو يستمع لحديث عادل وهو يشعر أن عادلًا قد أدرك خطأه، ولكن في مرحلة متأخرة حيث لم يعد سلطان يهتم لهذا الشعور، فلقد حصل على مبتغاه من الزواج الناجح والأبناء الصالحين والاستقرار في الحياة.

*****

تداولت منصات التواصل المصير الذي آلت إليه مريم، واشتعلت التغريدات بالزيادة في الخبر والمزيد من الإشاعات، وها قد وصل الخبر بين يدي إياد فتلقاه بالمزيد من الشماتة والمزيد من التهديد والوعيد، ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل امتد الغضب ليحرض قصيًّا على قتل عمته مريم إن عادت وغسل العار الذي لحق بالقبيلة.

تجمدت أطراف غالية وهي تسمع ذلك التحريض! اقتربت منهما وأخذت تسحب إيادًا واطرافها ترتعش بشدة وهي تقول: دع عنك قصيًّا يا إياد، إنه البهجة الوحيدة التي لونت بها حياتي، إنه الأمل المتقد الذي ظللت أتحمل به عناء العيش معك لتقر به عيني عند شبابه.

لا تقترب من قصي وإلا قلبت عاليها سافلها وأعلنتها حربًا ضروسًا. دفعها بقوة وقال: كفي عن نظرياتك وفلسفتك التي لا تصلح إلا في الكتب أو على مدرجات الجامعة، نحن هنا في واقع والواقع لا ينظر بنظريات، سيظل العار يطارده أينما ذهب وسينكس رأسه في التراب طوال عمره، فليمت بشرف أو يعِش بشرف. كان قصي

يستمع لهذا النزاع وصبره يتمدد ويتمدد حتى انفجر بالصراخ: كفاكما مهاترات، لم أعد أحتمل هذا النزاع.

أقولها لك يا أبي، من كوى الآخرين بالنار لا بد أن يكتوي بها، لم تفعل عمتي جرمًا من ذات نفسها، بل أنت من زين لها ذلك، أنت من زين لها جميلات السناب وغيرهن من العارضات والمشهورات والخارجات عن الوطن والمجتمع بإطرائك لهن ومتابعة أخبارهن ليل نهار حتى ظنت ذلك الأمر صوابًا وتمكن في نفسها، فلما صنعت صنيعهن استنكرت ورفضت، فلم كل هذه التناقضات! إن الله خلق لك عينين تبصران، فلماذا تبصر الحقيقة بعين واحدة، من جانب واحد؟!

افتح عينيك معًا لترى الحقيقة المجردة للمحتوى الزائف الذي كنت تعكف عليه.

ثم نظر إلى أمه وقال: أما أنت يا أمي، فيؤسفني أن أقول لك بأن هذا الزمان ليس زمانك، هذا زمان آخر تغيرت فيه مفاهيم القيم، أما المبادئ فيه فلم تعد ثوابت، لقد أصبحت مجرد نسبيات تتأرجح بين قبول الناس لها أو الإعراض عنها، لقد

زرعـتِ فيَّ قيـمًا أصبحـت تمثـل لي عائقًـا، لقـد أصبحـت مختلفًـا عـن أقـراني حتـى ظننـت أني فلتـة مـن فلتـات الزمـن الغابـر، لم يعـد بينـي وبينهـم أي مشـترك.

انظـري إلى نفسـك، وانظـري إلى الفجـوة التـي مـا زالـت تتسـع بينـك وبـين أبي يومًـا بعـد يوم،

انظري إلى عملك الذي عُزلتِ منه بسبب كلمة الحق.

إذن دعـوني أحـيَ حيـاتي بالشـكل الـذي يناسـبني، وأتخـذ قـراراتي بنفـسي، أريـد أن أخبركـم أننـي قـررت السـفر إلى اليابـان عنـد عمتـي، سـأدرس هنـاك الثانويـة وسـآخذ نفسًـا عميقًـا أسـتجمع بـه نفـسي.

كان قـصي يفجـر هـذه الكلـمات القاتلـة أمـام غاليـة ولم يكـن يـدرك أنهـا قـد أصبحـت كحطـام يتناثـر في الأرجـاء.. أخـذت تتحـرك ببـطء وهـي تسـتند عـلى أطـراف الكـرسي وإيـاد متجمـد أمامهـا ينظـر إليهـا مشـدوهًا وهـو يـرى اصفـرار وجههـا، أسرع ناحيتهـا يسـندها، أجلسـها عـلى الكـرسي وهـو يقـول: لم يعـنِ قـصي مـا قـال، إنـه لا يقصـدك يـا عزيـزتي غاليـة.

وأخـذ يتكلـم بارتبـاك شـديد محـاولًا تهدئتهـا: إنـه يقصـدني، نعـم

كان يقصدني، أليس كذلك يا قصي؟ وأخذ يغمز بعينه إلى قصي ليبدل في الكلام، لكنَّ قصيًّا كان أقسى مما يتوقع، لم يستجب لغمز أبيه وقال: حتى وإن تراجعت في كلامي، لن تقبله أمي.

أمي لا تقبل سوى الحقائق والقناعات يا أبي، وهذا ما ربتني عليه، أن أكون أنا كما أريد لا كما يمليه عليَّ الغير. وخرج مغادرًا المنزل متوجهًا إلى اليابان كما خطط من قبل.

ظلت غالية في مكانها لوقت طويل صامتة لا تتكلم حتى طوى الوقت الظلام، ساندها إياد متجهًا بها إلى غرفتها، تناولت الحقائب وأخذت تجمع فيها ملابسها، لقد حانت ساعة الرحيل، وإياد جالس على السرير لم تنبس شفتاه بكلمة.

كانت غالية تجمع ملابسها وهي تتساءل بدمعات تسيل على وجنيتها علامَ أمضت حياتها في هذا البيت! كانت ترى حياتها كمن دخل من باب ثم خرج من الباب المقابل، أخذت ترتدي العباءة وتسدل على وجهها النقاب، ورفعت الحقائب لتهم بالخروج، أمسك إياد بيدها وبكى على رأسها بكاءً شديدًا: «سيغادرني الأمان يا غالية، سيغادرني الاطمئنان.

ورغم الاختلافات التي كنتُ أبديها لكِ، لكنني كنت أشعر براحة عندما أستيقظ من نومي لأراكِ على سجادة الصلاة، لقد كنت أشعر وكأنك تكفرين عن أخطائي،

وكنت دائمًا ما أقنعك بالتخلي عن التزامك واستقامتك، ولكن صدقيني يا غالية، لو أنك استجبتِ لي وانحرفتِ عن مسارك لصرخت باكيًا أستحلفك الله أن تتوقفي.

لم نتوافق يا غالية بسبب خلل مني، وذنوب تراكمت، كنتِ كنهار واضح جلي، أما أنا فقد كنتُ كظلام دامس أنَّى له أن يدرك الضياء ولن يستطيع.

أرجوك يا غالية أن تسامحيني قبل أن تغادري، وأعدك أن تكون ورقة الطلاق غدًا بين يديك.

غادرت غالية وهي تشعر بأن حياتها مع إياد كانت تجربة قاسية وقسمة قسمتها الأقدار، ولم يعد الطلاق بالنسبة لها فشلًا ذريعًا، فالحياة قد تفشل لأسباب أخرى غير الطلاق، تفشل الحياة عند اختلاف الثوابت والأخلاقيات، تفشل عند اتباع الهوى وتغليب المصلحة العارضة، تفشل عند تعاكس الأفكار والأهداف أو عند

الجهل بالهدف الأساسي للزواج لإنشاء المجتمع الصالح والأبناء الصالحين.

وعلى جنح الظلام، كانت السيارة قد اقتربت من البيت القديم، شخص ما يجلس أمام الباب ينفث الدخان بقوة، ينظر إلى السيارة ويتفحصها محدثًا نفسه: من يا ترى القادمون؟! أهم عصابة من اللصوص؟! وتخرج غالية من السيارة، إنه يتمعنها بشدة، لقد عرفها، إنها غالية، نعم غالية.

هرول نحوها مرحبًا، ولكنه عندما اقترب منها رأى في عينيها الدموع فشعر بما قد حل بها، أخذ الحقائب من يدي إياد وهو يزجره ومضى خلفها يواسيها وهي تصعد الدرج: لا عليكِ يا غالية، أنتِ هنا بين أهلك وناسك، سنكون جميعًا تحت خدمتك. سكت قليلًا ثم قال وهو يزيد في مواساتها: لن تدفعي ريالًا واحدًا مقابل الدخول والخروج، سأمنحك البطاقة الصفراء. وبالكاد كتمت غالية الضحك الذي كان يغالبها حتى كاد أن يقتلها.

دخلت غالية البيت، فتحت الإنارة وأخذت تحوم بعينيها في أرجاء المنزل القديم، توجهت مباشرة ناحية المطبخ، هنا قضت

أكثر أوقات المتعة، توجهت صوب غرفة الاستقبال وتذكرت الكثير من المواقف والزيارات، وها هي تتحرك بثقل صوب غرفة عادل، فتحت النور وهي تتمنى أن ترى عادلًا نائمًا على السرير، أطفأت النور وغادرت وهي تبتسم، أخيرًا توجهت صوب غرفتها، دخلت الغرفة وهي تتمنى أن ترى غالية فتعانقها عناق الشوق والمواساة وتشكو لها ما لاقت وكابدت طوال السنين. فتحت الإنارة وأخذت تتحسس العفش القديم، نظرت إلى الخزانة، فرأت نقشًا قديمًا قد نقشته بيدها بعبارة «رمضان كريم»، ابتسمت ومضت تنفض الغبار عن الغرفة والشرفة وتقلب دفاترها المدرسية وذكرياتها.

رفع العم صالح صوته بالأذان معلنًا دخول وقت الفجر، فدمعت عينا غالية شوقًا لذلك الصوت الدافئ، وبعد الصلاة نامت وهي تشعر بأن الحياة سرت في عروقها ودبت إليها من جديد.

بعد الظهر كانت الجارات يطرقن الباب بقوة حاملات أطباق الغداء والحلوى، تجمعن حولها باكيات لما حل بها، أما غالية فقد كانت تهدئهن وهي تقسم لهن أنها غير آسفة لما أصابها.

بعـد ثلاثـة أيـام مـن الاسـتجمام قـررت غاليـة العـودة إلى العمـل في الجامعـة، وعنـد الصبـاح كان خالـد يترقـب نـزول غاليـة، فتلقاهـا في عجـل وهـو يقـول:

غاليـة، لقـد جهـزت لـك البطاقـة الصفـراء كي تتحـركي بحريـة في الدخـول والخـروج.

فتحـت غاليـة الحقيبـة وأخرجـت منهـا ٥٠٠ ريـال وقالـت: تفضـل يـا خالـد.

تلـكأ برهـة في قبولهـا، ثـم طـارت يـده والتقطهـا وهـو يقـول: هـذا كثـير يـا دكتـورة غاليـة.

فقالت: خذها يا خالد، أنت تستحق الأكثر.

ثـم انصرفـت وهـو يتتبعهـا بعينـين تدمعـان يدعـو لهـا بالعـوض الجميـل.

مضـت غاليـة في طريقهـا إلى الجامعـة وكانـت تفكـر بهـذا الموقـف، هـؤلاء النـاس البسـطاء سـكان الأحيـاء الشـعبية سريعـو التأثـر، بعكـس أولئـك الذيـن قـد أحاطـوا أنفسـهم بالأسـوار العظيمـة المتباعـدة في الأحيـاء الراقيـة أو العمائـر الحديثـة، إضافـة إلى ذلـك، فهـؤلاء البسـطاء

يمتلكون من التعاون والترابط ما لا قد يوجد بين أبناء القبيلة الواحدة، ورغم وجود بعض المظاهر السلبية إلا أنهم قد امتلكوا من رقة القلوب ورهافتها ما يستطيع الفرد أن يطورهم ويؤهلهم نحو الأفضل ليكونوا ركنًا داعمًا في المجتمع ويمنع وصول مظاهر المسخ والطمس الحديثة إليهم، ثم بدأت تتساءل في كيفية الحفاظ على هوية هذه الأحياء باعتبارها ذكرى من ذكريات الزمن الجميل وتراثًا قديمًا مأهولًا بالساكنين الأصليين لحمايتها من الاضمحلال في الحياة المدنية الجديدة، وأخذت تفكر في مسؤولية مراكز الأحياء على تحمل هذه الأمانة والمسؤولية بالدعم المعنوي والمادي والإعلامي لهذه الأحياء حتى يتشبث بها ساكنوها ولا تنطمس هويتها برحيلهم عنها.

وصلت غالية إلى الجامعة، وحين دخلت المكتب، أخبرتها إحداهن بأن العميدة في انتظارها في مكتبها، استغربت غالية وذهبت وهي تتساءل ماذا قد يكون الأمر!

ولما دخلت غالية المكتب لم تجد ذاك الترحيب الذي كانت تحظى به في كل مرة، فجلست وقد ازدادت الحيرة!

كانت العميدة ترتب بعض الأوراق في يدها، فظلت غالية تنتظرها بقلق شديد، وبعد صمت يسير قالت العميدة :

دكتورة غالية، إنني بصفتي امرأة مثلك، فإنني متعاطفة معك أشد التعاطف لما جرى لك من انهزامات متتالية من طلاق وعزل عن العمل وفصل من الصحيفة، ربما كنتِ يا غالية تسيرين في الاتجاه الصحيح ولكن لم تشأ الظروف في مجاراتك فكانت تعاكسك في أكثر من مرة. كانت غالية تمسح العرق المتصبب من جبينها وقد أدركت أن خلف هذه البداية قنابل موقوتة ستنفجر لاحقًا. قامت العميدة من مقعدها وجلست في المقعد المقابل لها وأكملت: كنا فخورين بك كواحدة من أعضاء هذه الجامعة، باحثة اجتماعية وعضوة في أشهر مؤسسات المجتمع وكاتبة بارعة في صحيفة شهيرة، تقدمين الندوات والمحاضرات التوعوية في الجامعة ونحن في أشد الوثوق بك. نظرت غالية إليها بتمعن تريد فهم المقصد، فأكملت: الوضع اختلف الآن يا غالية، يجب أن تحدي من نشاطك في الجامعة وأن تلتزمي فقط بتقديم دروسك المرتبطة بالمقرر، إنني على يقين بأن الطالبات لن يقبلن بنصائحك

وقد ثبت فشلك في شتى مجالاتك، إضافة إلى الضجة التي حدثت بسبب مقالك الأخير الذي قمتِ فيه بتبرير هروب الفتيات وكأنك تحرضين على المزيد من الهروب، لقد سببتِ إحراجًا كبيرًا لنا. قاطعتها غالية باستنكار: أرجوكِ أن تتوقفي عن هذا الإمعان في تجريحي، أنا لم أبرر الهروب، فقط شرحتُ بعض الأسباب التي قد تؤدي إليه، ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد، فهناك أسباب أخرى كالعضل والتسلط وحرمان الإرث، كل هذه الأسباب تجعل الفتاة عرضة للانجرار وراء دعوات المغررين، إضافة إلى محاولات الطمس والتمييع التي تستهدف بناتنا وأبناءنا في ظل الانفتاح في التواصل، وكان يجب عليَّ التنبيه للمسببات حتى نعالج المشكلة. ابتسمت العميدة بحنق وهي تقول: أنت كمن يقف عنيدًا في مواجهة العاصفة، لن يقبل بك المجتمع بعد خسائرك المتلاحقة، فلا داعي لإحراج نفسك وإحراجنا أيضًا. حاولت غالية رفض هذا التقييد وقالت: ولكن يا دكتورة هذا تخصصي وعملي، ويجب عليَّ أن أبحث في أسباب هذه المشاكل لمعالجتها وإيقاف تحولها إلى ظواهر بالتوعية والتثقيف للطالبات من هذا الصرح.

ردت عليها بسخرية: عند حاجتنا لإقامة ندوات توعوية سنكلف من هن أجدر واكفأ وأنجح في حياتهن، فابحثي عن حلول لمشاكلك أولًا، أخيرًا أتمنى أن تتفهمي موقفي.

غادرت غالية المكتب وهامت بنفسها في أروقة الجامعة وهي تحادث نفسها بأسى: إيييه يا غالية! وكأن ظروف الكون مجتمعة قد دبرت أمرها بليل لخذلانك! دخلت القاعة يعلوها البؤس على غير عادتها، جلست وأخذت الطالبات أماكنهن على مقاعدهن، لم تبدأ المحاضرة، وأسندت رأسها على الطاولة لوقت طويل، كانت الطالبات يتبادلن النظرات فيما بينهن، تقدمت إحداهن ومسحت على رأسها وهي تقول: دكتورة غالية، أرجوك لا تستسلمي، لا تنحني في وجه العاصفة، إننا نستمد قوتنا وصلابتنا من قوتك، لا زلنا بحاجة لنسمع منك الكثير، لنفكر ونتعلم كيف نطور من أنفسنا ومجتمعاتنا ونتعلم كيف نواجه الظروف. وتجمعت الطالبات من حولها يمددنها بالقوة والأمل، فرفعت رأسها ودموع الفرحة تسيل على خديها وهي تنظر في عيونهن، فترى عيونًا صادقة متفائلة باذلة جهدها لبناء مجتمع قويم، وضعن أيديهن

على يدها ولسان الحال يقول: لن يكسر الله قلبًا سعى لإصلاح القلوب.

وعند العودة إلى البيت كانت غالية مع مفاجأة كبيرة؛ حيث تلقت اتصالًا هاتفيًّا من المؤسسة تطلب منها العودة للعمل، ليس ذلك فقط، بل كانت أيضًا على موعد مع فرحة أخرى حين تلقت على بريدها الإلكتروني طلبًا من الصحيفة للعودة لزاويتها الأسبوعية بعد عزل رئيسة الصحيفة لعلاقتها المباشرة بالتغرير، وكأن السعادة قد ارتبطت بهذا الحي وهذا المنزل برباطها الوطيد! وانبثقت أنوار الأمل لتسطع في قلب غالية من جديد، إلا أنه وبرغم كل البشائر التي سيقت إليها، ظل في قلبها ثقب يتصاعد منه وجع خافت كلما تذكرت قصيًّا أو اضطرب قلبها شوقًا لمعانقته، فظلت تدعو الله عقب كل صلاة بأن يرده إليها ردًّا جميلًا.

في هذه الأثناء كان سلطان وعادل قد أقنعا مريم بضرورة اتخاذ إجراءات معاكسة لمواجهة التغرير، كان سلطان يعلم بأن القلم هو الطريقة السهلة والسريعة لقطع شوط في تثقيف

الفتيـات والفتيـان للعـدول بهـم عـن الوقـوع ضحايـا للتغريـر.

فطلـب منهـا القيـام بسـطر تجربتهـا ومـا توصلـت لـه مـن قناعـات حـول هـذا الأمـر، وطلـب منهـا أن تكـون عـلى اتصـال دائـم مـع غاليـة، وفعـلًا تـم الاتصـال وتشـكل تكتـل نسـائي واعٍ لمواجهـة التغريـر والفكـر المنحـرف الـذي يُبـث عـبر منصـات التواصل.

وجلسـت مريـم عـلى اسـتحياء في منـزل سـلطان حيـث كانـت تقـوم بنشر رسـائلها بشـكل مسـتمر

في حـين ظلـت جوليـا المـرأة التـي حـين اعتنقـت الإسـلام اعتنقتـه بصـدق واقتنـاع بعدالـة تشريعاتـه، ظلـت تفكـر في أمـر مريـم وتخاطـب نفسـها إلى متـى سـتظل عـلى هـذا الحـال. فحاولـت إقنـاع سـلطان بـأن يتزوجهـا لتشـاركها المنـزل والحيـاة جنبًـا إلى جنـب معـه.

اندهـش سـلطان لهـذا الطلـب وظـل يسـتمع إليهـا وهـي تقـول: مـا أعـدل شرع الإسـلام ومـا أنصفـه! لـو لم يكـن هـذا مباحًـا لأصبحـت هـذه المسـكينة عرضـة للضيـاع.

رد سلطان وهو متفاجئ: دعيني أفكر في الأمر. فقالت: الأمر ليس فيه خيار يا سلطان، هذه الفتاة أمانة عندك ويجب أن تحفظها.

في اليوم الثاني كان سلطان يناقش عادلًا في هذا الأمر والحيرة تأكل جنبيه حيث لم يكن يرغب بزواجها!

فإذا بفكرة قد أنارت عقله: ما رأيك أن تتزوجها يا عادل وتعود بها إلى المدينة المنورة؟

تلعثم عادل وهو يقول: أنا، ماذا؟!

فقال له سلطان: أنت يا عادل شخصية معروفة ومن وجهاء المدينة إن أقدمت على الزواج من مريم فستكون بذلك قد أعدت الاعتبار والكرامة لأهلها، وسيكون باستطاعة مريم العودة إلى المدينة.

رد عادل: لن أكون أفضل منك وقد أصبحت عالمًا من علماء الزمان.

ثم قال مستنكرًا: ماذا تريد أن يقول الناس عني؟! عدت بهاربة لتكون زوجًا لي؟!

انحسرت معالم الفرحة عن وجه سلطان وهو يقول: ظننتك قد تخلصت من رأي الناس، ألا تنظر يا رجل إلى صلاح قلبها ورغبتها في إصلاح ما أفسدته؟ ألم يشفع ذلك لها؟

لا زلت تنظر إلى رضا الناس ولا تنظر إلى رضا ربك؟!

فكر عادل وقال: إذا كان الأمر كذلك فالخيار لمريم، أينا ترتضيه يتزوجها.

وقبل سلطان الاقتراح، وذهبت جوليا لتخيرها، فكان الخيار برغبتها بالزواج من عادل حتى يتسنى لها العودة للعيش للوطن فكان الأمر كما شاءت، وقام عادل

بمهاتفة إياد، وبعد أخذ وعطاء في الكلام اقتنع إياد وتم القبول، على أن يتم الزواج في المدينة بعد حفلة تتويج سلطان.

واقتربت الساعة التي يحلم بها بكل مواطن ومواطنة، وكل مسلم على أصقاع الأرض، وتوحدت الأقمار والقنوات لبث حفل إعلان الجوائز، وتوحدت المشاعر والقلوب وهي تخفق شوقًا إلى إعلان اسم البطل سلطان ممثلًا المملكة العربية السعودية كأول حائز على نوبل، وتم نقل التتويج على أصوات الزغاريد ودمعات العيون وتعانق الجيران، وضجت المملكة وضجت المدينة خاصة بالتهاني والأفراح، سكان الحرة الشرقية يتناثرون في أزقتها يتبادلون قبلات الفوز ويتبادلون العناق وينثرون الحلوى في جنبات الطرق

على المارين وبين سكك السيارات بهذا النصر الذي حققه البطل سلطان، لقد كان هذا الفوز فوزهم، وهذا التقليد وسامًا تقلده الجميع، وهكذا توحدت القلوب حول النجاح الذي لا يختلف عليه اثنان، النجاح الذي خلق أفراحًا مشتركة وحدت بين القلوب، لا بدعوات التمزيق وتشتيت الأسر وتفريق الجماعات، وهكذا يكون دور المواطن الصالح ساعيًا لخلق الألفة والوحدة بين أفراد المجتمع للمضي قدمًا بالوطن نحو التقدم والازدهار. كان هذا هو بعض مقتطفات المقال الذي خطته غالية بدموع عينيها قبل مداد قلمها وكان سلطان يقرأ هذه الكلمات وهو يدعو الله لها بالتوفيق والسداد.

وحان الوقت لعودة عادل ومريم من السويد، وعلى أرض المطار كانت مريم تحط أولى خطواتها وهي تستغفر الله ودمعها يسيل على وجنتيها تطلب من وطنها المسامحة والغفران، كان إياد في استقبالها ينتظرها على عجل، وحين رآها أسرع ناحيتها وعانقها بحد السكينة التي غرسها في ظهرها لتغرب عيناها معلنة الرحيل وهي تلفظ كلماتها الأخيرة: يغفر الله لك يا إياد، والله لا

أجد لك عذرًا عند الله. وصاح عادل منددًا بالخيانة فقالت له: يا عادل، والله لو غُرست خناجر الأرض مجتمعة في ظهري لهو خير لي من أن أستل قلمي وكلماتي يومًا في محاداة ديني ووطني، هذا خير لي من بقائي على ما كنت عليه.

أخبر غالية بأن تتصدى للصيحات التي ستتوالى لتتخذ من قضيتي ذريعة لتحقيق مطامعها في هذا الوطن. ثم لفظت نفسها الأخير.

شعرت غالية بأن جانبًا كبيرًا قد انهدم برحيل مريم، فاستجمعت كل قوتها واستنفرت مساعداتها من النساء للتصدي للأصوات والصيحات التي أطلقها المغررون والمناهضون على حد سواء.

****

ورغم كل هذه الأعباء التي أحاطت بغالية لوقت طويل، إلا أنها كانت على عادتها القديمة التي تبعث في قلبها الأمل وتجدد التفاؤل به، فتخرج كل مساء إلى الشرفة بعد هجوع العيون وتظل تخاطب القمر وتتأمله، يتحول وجه القمر أحيانًا إلى وجه قصي، فتدمع عيناها وتدعو الله له أن يعود، لكن العائد لم يكن قصيًّا، لقد كان العائد سلطان.

قرر سلطان زيارة المدينة بعد التكريم الذي ناله في العاصمة الرياض، وها هو الغائب يعود إلى أرضه والمسافر يؤوب. كانت السيارة تمشي ببطء، بطء لم يألفه سلطان، إنها الأوقات الثقيلة التي تسبق كل لقاء، القلب يخفق والروح تكاد أن تطير، والأطراف مرتعشة ولا تقوى على الصمود، أبصر الحرة من بعيد وأخذت السيارة تقترب من الحي أكثر، أبى المكوث فيها ومضى يمشي بين الجموع، الكل هنا مجتمعون للترحيب بالبطل سلطان، الجزار يلوح له من بعيد، والبقال يشرئب بعنقه بين زحمة الناس ليرسل له السلام، الكل هنا مشتاق ويطمع في رؤيته، ومضى سلطان يسلم على ذاك وذاك حتى اقترب من البيت القديم،

كانت الزينات متصلة بين الشرفات وسطح المسجد، والكراسي قد رُتبت بانتظام وفرقة الإنشاد قد بدأت بالصدوح، عمدة الحي وعادل وشباب الحارة يقفون شوقًا لمصافحة سلطان، يتوسطهم الشيخ صالح، وما إن رآه سلطان حتى انكب باكيًا يقبل رأسه ويديه، لم يشِب الشيخ صالح كثيرًا وهذا ما أدخل على قلب سلطان السرور، تناثرت الورود من النوافذ وضجت الزغاريد من كل مكان، وبعد انتهاء الحفل قام سكان العمارة يهيئونه للدخول، كان الحارس خالد يراقب الحفل من بعيد وسيجارته بيده كعادته، فلما أرادوا الدخول وضع يديه على عارضي الباب وقال: سيدخل طبيبنا العبقري بالمجان، أما بقية الساكنين... ابتسم وهو يكمل: سيدخلون أيضًا بالمجان، وطفق الجميع يضحكون وعادل ينثر على رأسه برميل الورق.

كان هذا اللقاء لقاءً مغمورًا بالفرح والأشواق، يعانق سلطان أمه عناقًا طويلًا وسط دمعات الخالات من الجارات أم خالد وأم راشد.

وأخيرا حل الظلام وأوى كل حي إلى مهجعه، سلطان يتحسس

الـدار قبـل الخلـود إلى النـوم، كل شيء في البيـت لم يتغـير، كـم هـو جميـل أن يعـود المـرء إلى ماضيـه الجميـل فيجـده عـلى مـا كان عليـه لم تعبـث بـه أيـادي الأيـام والسـنون!

في غرفتـه كانـت سـجادته مطويـة بجانـب سريـره، أحذيتـه لا تـزال في موقعهـا، بـل حتـى أقلامـه وأوراقـه وأيضًـا المشـط والعطـر المتواضـع الـذي رافقـه خـلال فـترة الشـباب لا زالـت في أماكنهـا.. مـرت السـنون بسرعـة، ولكـن سـلطان اسـتطاع أن ينجـز فيهـا الكثـير، خـرج إلى الشرفة يتفقـد أرجـاء الحـي الهـادئ، كان الحـي سـاكن وأزقتـه الترابيـة مفرغـة مـن المارِيـن، والمسـجد البهـي يزيـد الحـي أمانًـا وسـلامًا، تتـدلى النخيـل المثقلـة بالتمـور عـلى أسـواره.. النـاس نيـام والعيـون هاجعـة إلا عينـان ظلتـا متقدتـين في قلبـه قـد عزفـت عـن النـوم. أغمـض عينيـه كي يتهـرب منهـما، لكـن عبـق الشـوق فـاح في كل الأرجـاء، غـادر الشرفـة عـلى عجـل محـاولًا النـوم، لكنـه عـاد وفتـح الشرفـة وظـل فيهـا حتـى كـبَّر الشـيخ صالـح بـالأذان.

بعـد الصـلاة كان عـادل يقـف أمـام غاليـة مبتسـم الوجـه مسـتبشرًا، أمعنـت غاليـة في وجهـه بالنظـر وعلمـت أنـه يخفـي حديثًـا ما.

ابتسم لها وقال: ثمة عين تشتاق لرؤيتك يا غالية.

لم تفهم وأمعنت فيه أكثر، فقال وهو يكاد يطير فرحًا: لقد عاود سلطان في طلبك اليوم مني.

تورد وجهها خجلًا وهي تقول: ما زال سلطان على العهد؟

فقال لها: هو كذلك.

فقالت: وماذا لو طلبني للسفر؟

فتولى وهو يضحك إلى غرفته قد كساه الإحراج على ما كان.

توصل عادل إلى قناعات كثيرة مفادها أن الرياح لا تغير المرافئ، ولكنها قد تجبر السفن على تغيير المسار، وهكذا هو الإنسان، كلما كان مستمدًّا قيمه من ثوابت لا تتزحزح كان كالمرافئ ليس للرياح عليها من سبيل.

بعد صلاة العصر، كان كل من عادل وسلطان ممسكين بيدي بعضهما يرددان خلف الشيخ صالح عقد الزواج.

وفي المساء كانت غالية تجلس في صدر الغرفة وكان الداخل هذه المرة سلطان يحمل بين يديه وردًا أحمر يداري به رعشة الشوق التي تمكنت من يديه، يخطو على الأرض ببطء وتؤدة،

حتى جلس إلى جانبها، صمت بعض الوقت ثم سألها: كيف حالك يا غالية؟

صمتت، فأعاد عليها،

ارتبكت وقالت: أنا متعبة.

لم تكن غالية تتقن الكذب، فقد كانت متعبة مما كابدته من سنوات العيش مع إياد.

ابتسم وقد رأى خجلها من ردها وقال: أنا أيضًا متعب.

سقطت دمعتان دون أن يشعر بهما وهو يقول: أنا متعب من الأشواق التي ظللت أكابدها سبعة عشر عامًا، وكلما تظاهرت بالنسيان أعود لأتتبع مقالاتك وتغريداتك وكتبك، فأجد نفسي دائمًا غارقا في بحارك.

رفعت عينيها تتأمله

تأملت خطوط شعره الأبيض الزاحفة على الجانبين وبعض نتف بِيض قد زينت لحيته الخفيفة، لقد ازداد وسامة واعتلاه الوقار.

كان اللقاء دافئًا تخلله بعض الشكوى وبعض العتاب، وغادرها سلطان وهو لا يزال يحمل في قلبه الكثير من الكلام.

****

في اليوم الثاني كان سلطان يقف على الباب: يا غالية يتوجب علينا السفر في أسرع وقت.

الأبحاث التي وضعتها تمضي قدمًا ويتوجب عليَّ متابعة سير نمو الخلايا عن كثب، إذا استطعت التحكم بانتشار ونمو هذه الخلايا سيكون العلاج في متناول كل مريض، ستكون أفضلية صرف الدواء هنا في المملكة، وقد يصرف العلاج هنا بالمجان حسب الشروط التي سأضعها على الشركات المنتجة للدواء.

لم تتردد غالية في أمر السفر

ولكنها احتارت في أمر مؤسساتها التي تعمل فيها وفي زاويتها الأسبوعية وطالباتها النبيلات، لكن سلطان أقنعها بأنها تستطيع متابعة سير العمل عبر النت، ووعدها بأن تكون العودة إلى أرض الوطن في أقرب وقت.

عند المساء كانت غالية تجهز حقائب السفر وسلطان يقف إلى جانبها يساعدها في ذلك، كان الجوال قريبًا منه، فأضاء بوصول رسالة لرقم دولي غريب، أخذ الجوال وناوله غالية، وأخذت تقرأ الرسالة وقد أحاطهما صمت رهيب: (حاولت

الهـروب والنـأي بنفـسي بعيـدًا، ليـس تضجـرًا منـك، ولكـن لأخـوض مـع نفـسي معركـة تحديـد المصـير..

أمي الحبيبة،

لم تغادرينـي مـذ غادرتـك، كنـت معـي في كل لحظـة ولم يكـن أحـد سـواك.

حـين كنـت أتجـول هنـا بـين المتاحـف والآثـار كانـت جبـال أحـد حـاضرة في ذهنـي بـكل تفاصيلهـا وأنـت إلى جانبـي.

وحـين كنـت أتمـشى في الغابـات هنـا لم أكـن أرى إلا النخيـل المنتـشرة في أطـراف المدينـة.

وحينـما كنـت أتجـول في زحمـة الأسـواق بـين مئـات النـاس كان قلبـي يخفـق شـوقًا لرؤيـة ازدحـام المصلـين في مسـجد رسـول اللـه. أمـي الحبيبـة، لـن أسـتبدل الـذي هـو أدنى بالـذي هـو خـير، ولـن أسـتبدل بمدينـة رسـول أي بقعـة في الأرض.

لقد اشتقت لسماء المدينة وهيبة سحابها، اشتقت للفحة الهواء الدافئ وحمرة ترابها، اشتقت لجبالها وحرتيها وكل جزء فيها.

أنـا لم أكـن فلتـة مـن فلتـات الزمـن الغابـر كـما أوهمنـي البعـض،

ولم تكوني المثال الصحيح في الزمن الخطأ، فالجميع هنا في اليابان يحترمون تراثهم ويسيرون وفق مبادئهم، ولقد تعلمت هنا كيف تحترم الشعوب هويتها ومكتسباتها وعلمت كم كنت محقة في ذلك!

غاليتي، لم تفشلي في تربيتي، فأنا كنت على ما عهدتِ حتى في برنامجي اليومي.

سأعود إليك يا أمي لنذهب كل صباح للصلاة في مسجد رسول الله، كما أعدك بأن أكون أهلًا لجوار رسول الله،

سنعمل سويًّا لتوعية الشباب، وسأكون ساعدك الأيمن في كل الظروف). كان هذا اعتذار قصي عما بدر منه، وكانت غالية تقرأ الرسالة بيدين مرتجفتين فرحًا، أما سلطان فقد كان يقرأها بعين الرجل الواعي والوالد المتفهم المسؤول، نظرت إليه ونظر إليها وقد علم بالمكنون، فخاطبها برفق وقال: الأمر بين يديك يا غالية.

وهكذا شاءت الأقدار أن تجعل غالية دومًا بين نار الاختيار، ولكن غالية الإنسانة الهادفة والنبيلة كانت تعلم أن في هذه الحياة أولويات يجب ترتيبها حسب الأهمية وأنه لا بد من التضحية

عنـد كل ترتيـب.

وقفـت تنظـر إليـه بنظـرات خالطتهـا دمـوع الاعتـذار، فقـال لهـا: لا تعتـذري يـا غاليـة، واللـه لـو لم يكـن هـذا الخيـار خيـارك لكان قـراري، إننـا عـلى هـذه الحيـاة قـد رأينـا صـورًا كثـيرة لزيجـات ناجحة سـادها الحـب والوئـام، ولكننـا لم نـرَ بعـد صـورًا مشرقـة لشـباب يمسـك بزمـام هـذا الوطـن ليسـير بـه إلى مراتـب الـدول الأولى إلا النـادر القليـل، إننـي بحاجـة لمـن يسـتلم الرايـة مـن بعـدي يـا غاليـة، بحاجـة إلى شـباب متعلـم مسـتقيم نأخـذه بعيـدًا عـن سـقوط وتفاهـات التافهـين عـلى منصـات التواصـل أو التليفزيـون وغـيره، بعيـدًا عـن دعـوات شـق الصـف وإزعـاج الآمنـين، ليكـون همهـم حمـل رايـة التقـدم والرفعـة والتحليـق بهـا بـين الأمـم.

اقـتربي مـن قـصي يـا غاليـة، وخـذي بيـده نحـو سـكة النجـاح ثـم اتركيـه لينطلـق عـلى بركـة اللـه، وأعـدك بـأن أكـون لـه نعـم المعـين.

اقتربت غالية ووضعت رأسها على كتفه وقالت:

شاءت الأقدار أن أعيشك حلمًا يا سلطان يتبدد عند كل لقاء

وأن أعيش حلم لقاك رباطًا على ثغور الانتظار.

وضع يده على رأسها وقال: هذه هي قوانين الحياة يا غالية،

في حياة كل شخص منا فرحة لم تكتمل ، وحلم لم يتحقق

وتحت جنح كل نجاح تضحيات جسيمة لقصص ووقائع غمرتها الأيام والسنون.

كانت هذه هي الدقائق الأخيرة للقاء سلطان وغالية بعد فراق دام قرابة سبعة عشر عامًا أعقبه لقاء قصير ثم فراق لا يعلم أحد مداه. أدار سلطان ظهره قاصدًا الخروج، لكن غالية أمسكت بذراعيه وهي باكية وناولته روايتها التي حكت ما عانته طوال سنين الفراق.

أخذ سلطان الرواية يتأملها وأخذ يقلب أوراقها، سألها مستفهمًا: هل عنيتِ نفسك بهذه الرواية يا غالية؟

ردت عليه وهي تمسح الدموع: ليس كثيرًا يا سلطان، ولكنني كلما طرت بخيالي بعيدًا أعود فأجد نفسي بين السطور.

قلَّبها فلم يجد لها عنوانًا فقال: ما عنوانها؟

أرسلت بصرها نحو الشرفة وتأملت حمرة السماء على الأفق البعيد، نظرت في عينيه وقالت: أسميتها على شرفة الأيام.

** النهاية **